الأرض العذراء

تأليف

الروائي الأشهر

ايفان تورجنيف



دار الهلال

الأرض العذراء

تأليف

الروائي الأشهر

ايفان تورجنيف



دار الهلال

مؤلف الرواية

ولد « ايفان تورجنيف » في عام ١٨١٨م، وكان مولده في «اوريل» مزرعة القمح التي تستورد منها بلاد أوربا كافة حاجتها منه ٠ فنشأ في الريف ، واختبر حياته عن كثب ، وبلغ أشده في حكم الطاغية نقولا الاول ٠ لقد أدرك عهد « رقيق الارض » وشهد بعينه تلك الفترة السوداء من تاريخ روسيا الاجتماعي ، ومبلغ ما لقيه الفلاحون الكادحون من غبن نظام الاقطاع في أواخر سطوته ، بل انه شهد ماهو أفدح من هذا وانكى ٠٠ شهد اضطهاد الثقافة والادب وحرية الفكر ، فرأى بعيني رأسه أعلام روسيا في الادب والنقد والشعر ينفون الى مناجم سيبيريا ، أو يساقون مكبلين بالاغلال الى المشانق ، ليعفى عنهم في آخر لحظة وقد تهدمت أعصابهم ٠٠٠ ولكن لا ليطلق سراحهم ، بل ليعملوا في أرض سيبيريا الدائمة الجليد

وقد عرف ايفان تورجنيف السجن ثم النفي والتشريد ثلاثين عاما ظل طوالها يناضل عن الحرية بعيدا عن وطنه ٠ وفي الثامنة عشرة دخل المؤلف جامعة موسكو ، ولكنه ضاق ذرعا بالنظام الاستبدادي وجاسوسية البوليس السياسي ، فغادر روسيا في سن العشرين الى برلين ، فاذا بها ترزح تحت طغيان الحكم البروسي العتيد ٠٠ ولكن استبداد بروسيا كان بالقياس الى طغيان قيصر روسيا نعمة مشكورة !

فلما عاد بعد ثلاث سنين الى بلاده لم يستطع احتمال جوها الخانق لانفاس الاحرار ، فعاد الى الهجرة ، ولم يلم بوطنه الا فترة وجيزة من كل سنة لرعاية الضروري من مصالحه هناك

وذات مرة راودته نفسه على الاقامة في ريف روسيا ، فلما ظهر كتابه « قصص الصيد » سيق الى السجن ! وبذلك تزكى قلمه وأدى ضريبة الحرية ٠٠ ولكنها كانت الاولى والاخيرة فاقلع عن الاقامة في وطنه ما بقي من عمره !

وفى أثناء اقامته بفرنسا عقد أواصر الصداقة مع كثير من أدبائها الخالدين ، منهم جوستاف فلوبير ، واميل زولا ، والفونس دوديه . ورينان ، وجورج سـاند .. وترجم مؤلفاته الى الفرنسية بروسبر مريميه .. فأصبحت فرنسا وطنه الثانى ، وصار يعد امام المدرسة الواقعية فيها

وقد ثقلت عليـه آلام النفى النفسية ، فتهـدمت بنيته القوية ، ومات فى سنة ١٨٨٣ بعد أعوام من آلام مرض السرطان ..

ومن مفارقات الايام أن رفات هـذا الكاتب الذى حرم من وطنه حيا قوبلت فى روسيا بالتكريم الذى لو لقى فى حياته جزءا منـه لكان أسعد العالمين ..

□

ويعتبر تورجنيف من أساطين الادب الروسى ، بل الادب القصصى فى العالم . وقد اعترف له بهذه المكانة جميع النقاد الثقات فى كافة الدول الكبرى

فقد اكتملت له الاداة الفنيـة فى تصوير الشخصيات والمواقف والبيئات من الالوان الى الخطوط الواضـحة ، الى القدرة على المزج والتركيب والتحليل .. فى اقتصاد واعتدال

فهو من أقدر كتاب العـالم على تصوير موقف معقـد تصـويرا وافيا ببضع كلمات ... ومن أقدر الناس على تصوير شخصية فى بضع لمسات ، فاذا هى كائن حى



شخصيات الرواية

نجدانوف Nejdanov :شاب ثورى . عضو فى جماعة سرية. شاعر. شديد الحساسية. طالب بالجامعة . فى الثالثة والعشرين .ابن غير شرعى لأمير ثرى.. ساخط على المجتمع

استرودوموف Ostrodumov : زميل له فى الجماعة السرية . وطالب بالجامعة

ماشورينا Mashurina :مولدة قانونيــة . وطالبة طب . قبيحة الشكل . ثورية متحمسة ، من أنصار العنف . فقيرة ، حاقدة على الدنيا والمجتمع

باكلين Paklin : شاب ثورى أعرج فقير يعول أختاً حدباء . عضو فى الجماعة السرية. طيب القلب ، مخلص ، مرح

سيبياجين Sipiagin : سياسى كبير . واسع الثراء ، وسيم أنيق، يملك قصراً وضيعة فى الريف

فالنتينا ميهايلوفنا Valentina Mihailovna : زوجة سبياجين . حسناء بارعة الجمال ذكية . تحسن استخدام فتنتهــا فى اخضاع الشبان لجمالها . ولــكنها باردة القلب قاسية

ماريانا Mariana : ابنة أخت سبياجين. صريحة وثائرة. والدها جنرال سابق اختلس ونفى الى سيبيريا وجرد من رتبته وثروته . يربيها سبياجين

كولوميتزيف Kollomietzov : مراب يزعم أنه أرستقراطى . جار فى الضيعة لآل سبياجين . رجعى متطرف . شديد الحماسة للعنف ضد التقدميين

سولومين Solomin :مهندس ومدير مصنع . ثورى ولــكنه هادىء الأعصاب جداً ، وواثق بنفسه فى ترفع وتواضع فى آن واحد

ماركيلوف Markelov : شقيق فالنتينا ميهايلوفنا . ضابط سابق . حاقد على المجتمع والدولة لطرده من الجيش . وعضو فى الجمعية الثورية . مندفع وضيق الأفق

هذه الأرض العذراء

«يا من تريد تقليب الارض
العذراء .. عليك حتما ان
تستعين بمحراث عميق الحد ،
يغوص جيدا فى باطنها ،
لا بمحراث قليل الغور ،
لا يتجاوز جهده سطحها
الظاهر ...»

(من كتاب فى الزراعة)

امرأة تدخن

كان اليوم من أيام ربيع سنة ١٨٦٨ حينما صعد شاب في السابعة والعشرين من عمره سلم منزل يرتفع خمس طبقات بشارع الضباط في بطرسبورج ، ثم دق جرس باب مفتوح بالطابق الخامس ، ودخله دون استئذان ، ونادى في دهليز ضيق معتم :

— هل نجدانوف في البيت ؟

فأجابه صوت في مثل خشونة صوته ، إلا أنه صوت امرأة ، أتاه من الحجرة المتصلة بذلك الدهليز الذي كان يقف فيه :

— كلا . ليس في الدار . ولكنني موجودة . ادخل

فسأل القادم مرة أخرى وهو في مكانه :

— هل أنت ماشورينا ؟

— نعم أنا . هل أنت استرودوموف ؟

فأجابها وهو يدخل الحجرة وينزع وقاء الثلج بعناية عن قدميه :

— أجل ، بعين استرودوموف

ثم علق معطفه الرث فوق مشجب (هو في الواقع مسمار كبير) على جدار الحجرة التي كان يصدر عنها صوت المرأة

وكانت هذه الحجرة ضيقة ينقصها النظام والأناقة . أما حيطانها فكانت خضراء باهتة ، تضيئها اضاءة رديئة نافذتان تراكم على زجاجهما التراب !

ولم يكن الأثاث كله سوى سرير متواضع مختصر من الحديد يقوم في ركن منها ، أما وسط الغرفة فتحتله مائدة من حولها بضعة كراسي . وهناك أيضاً خزانة كتب تراكمت فيها مجلدات مختلطة

وإلى تلك المائدة الوسطى جلست امرأة في نحو الثلاثين من عمرها ، عارية الرأس ، ملتفة في ثوب من قماش أسود ، وكانت ... تدخن سيجارة

وما أن وقع نظر المرأة على استرودوموف حتى مدت اليه يداً عريضة حمراء اللون من غير أن تنطق بكلمة ، فهز يدها من غير أن يقول شيئاً كذلك . ثم ألقى بنفسه فى كرسى واستخرج من جيبه الخارجى سيجارة نصف مكسورة، وقدمت اليه ماشورينا شعلة ، وبعد ذلك شرعا ينفثان معاً سحائب طويلة زرقاء فى جو الغرفة المثقل المشحون كما هو بالدخان ، من غير أن يتبادلا كلمة واحدة ، بل من غير أن ينظر أحدهما إلى الآخر

وكان بين هذين المدخنين وجه من وجوه الشبه ، مع ان ملامحهما لم تكن متماثلة إطلاقاً . فى هاتين السحنتين المتخشنتين ، بشفاههما الغليظة ،وأسنانهما، وأنفيهما (بل ان أنف استرودوموف كانت تحمل آثار الجدرى أيضاً) كنت تستشف ارادة وعزماً ومثابرة

وسأل استرودوموف أخيراً :

— هل رأيت نجدانوف ؟

— نعم . وسيعود فوراً . فقد ذهب إلى المكتبة ببضعة كتب

فتلفت استرودوموف حوله ثم قال :

— لماذا أراه كثير التحرك دائماً فى هذه الأيام ؟ لم يعد فى استطاعة الانسان أن يضع يده عليه

فتناولت ماشورينا سيجارة أخرى ، وقالت وهى تشعلها بعناية :

— لأنه يشعر بالسأم

فقال استرودوموف فى تأنيب :

— يشعر بالسأم ! ما هذا الدلع ؟! ان من يسمع هذا يظن أنه ليس لدينا عمل نقوم به . والسماء وحدها تعلم كيف يمكننا أن ننهض بما علينا . وهو يشكو مع هذا من السأم !

فسألته ماشورينا بعد برهة صمت :

— هل أتتك أنباء من موسكو ؟

— نعم جاءنى خطاب منذ ثلاثة أيام

— وهل قرأته ؟

فهز استرودوموف رأسه مجيباً فى صمت ، فقالت :

— حسناً ؟ وما هى الأخبار ؟

— يجب أن يذهب بعضنا إلى هناك بسرعة

فنزعت ماشورينا السيجارة من فمها وسألته :

— لكن لماذا ؟ أنهم يقولون ان كل شيء يجرى هناك على ما يرام

— نعم . الأمر كذلك . بيد انه قد اتضح أخيراً ان رجلا قد ثبت عدم جدارته بالثقة ، ويجب التخلص منه . وفوق هذا توجد مسائل أخرى . وهم يريدون منك أنت أن تأتى أيضاً

— هل قالوا ذلك فى الخطاب ؟

— نعم . نعم ....

فهزت ماشورينا إلى الوراء شعرها الثقيل الذى كان مقصوصاً من الخلف، ولكن يتدلى من الأمام فوق حاجبيها ، وقالت :

— مادام الأمر قد تقرر فلا محل للكلام

— طبعاً لا محل . وكل ماهناك ان المرء لايمكن أن يصنع شيئا بغير نقود . ومن أين لنا أن نحصل عليها ؟

فأخذت ماشورينا تفكر ، ثم قالت بصوت خفيض كأنما تحدث نفسها :

— على نجدانوف أن يدبر المال

— وهذا بالضبط ما أتيت بسببه

فسألته ماشورينا فجأة :

— هل معك الخطاب ؟

— نعم . أتحبين أن تريه ؟

— أريد ذلك . ولكن لا بأس ، ففى استطاعتنا أن نقرأه معا بعد قليل

فزمجر استرودوموف وهو يجيبها :

— لا حاجة بك أن تشكى فيما أقول . فقد أخبرتك بالحقيقة

— لم يخامرنى الشك على الاطلاق

ثم كف كلاهما عن الحديث . وعادت سحب الدخان تنطلق من فميهما فى صمت ، مثل ذى قبل وتنعقد ببطء فوق رأسيهما المشعثين

ثم سمعت أصوات أقدام فى الدهليز ، فهمست ماشورينا :

— ها هوذا نجدانوف ...

وانفتح الباب قليلا ، ثم أطل من فرجته رأس ، لكنه لم يكن رأس نجدانوف

كان رأسا مستديراً ذا شعر أسود خشن وجبهة عريضة متغضنة . أما عيناه البنيتا اللون فكانتا تلمعان تحت حاجبيه الطليقين على جانبي أنفه الكبير وفمه الذى يبعث وضعه على الضحك

وبدا رأسه المستدير فى تلك اللحظة باسما عن صفين من أسنان صغيرة بيضاء . ثم تقدمت الرأس فدخلت الحجرة ومعها جسدها الضئيل بذراعيه القصيرتين وساقيه المعوجتين اللتين تعرجان قليلا

وبمجرد أن وقع نظر ماشورينا واسترودوموف على هذا الرأس بدت على وجهيهما أمارات الازدراء والتعالى . وكأنهما يحدثان نفسيهما بثقل ظله . بيد أن أى واحد منهما لم ينبس بكلمة

ولم يؤخذ الضيف القادم بسوء هذا الاستقبال إطلاقا . بل يبدو على العكس أنه أدخل السرور على نفسه . ثم سأل بصوت كأنه الصرير :

ــ مامعنى هذا ؟ عزف ثنائى ؟ ولماذا لايكون ثلاثيا ؟ وأين المغنى الأول ؟

فسأله استرودوموف بكل جد :

ــ أتعنى أين نجدانوف يامستر باكلين ؟

ــ أجل يامستر استرودوموف

ــ سيعود حالا يامستر باكلين

ــ يسرنى أن أسمع هذا يامستر استرودوموف

ثم التفت الأعرج الضئيل الى ماشورينا ، فقطبت جبينها ثم استأنفت نفث سيجارتها على سجيتها

ــ كيف حالك ياعزيزتى ... ياعزيزتى ... آسف جداً ! انى أنسى دائماً اسمك الأول وكذلك اسم السيد الوالد

فهزت ماشورينا كتفيها ثم قالت :

ــ لا حاجة بك أن تعرف أيهما ، فأنت فيما أظن تعرف لقبى . فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ ولماذا تصر على أن تسألنى باستمرار عن أحوالى ؟ فأنت ترى بعينيك اننى مازلت فى عالم الأحياء !

فهتف باكلين وقد تقلص وجهه بعصبية :

ــ طبعاً ! فلو أنك كنت فى مكان آخر ، لما أتيح لخادمك المتواضع أن يحظى برؤياك هنا ، وأن يتحدث اليك ! إن حبى للاستطلاع مرجعه إلى عادة

عتيقة سيئة . ولـكن بصدد اسمك ، أرى من غير المستساغ بوجه من الوجوه أن يناديك الانسان بكلمة ماشورينا فحسب . وأنا طبعاً أعـلم انك حق فى خطـاباتك لا توقعين اسمك إلا بكلمة بونابارت ! عفوك ! أعنى ماشورينا ، ولـكن أثناء الحديث ..

— ومن الذى طلب منك أن تحدثنى ؟

فأطلق باكلين ضحكة عصبية وقال :

— لا بأس ياعزيزتى . أعطنى يدك ولا تغضبى . أنا أعلم انك لا تقصدين شراً . وكذلك أنا ... حسناً ؟

ومد باكلين يده . فرمقته ماشورينا بشدة ثم مدت يدها ، وقالت له باللهجة القاسية التى عبر عنها وجهها :

— إن كنت تريد حقاً أن تعرف اسمى . فأنا أدعى فيكلا

فقال استرودوموف بصوته العميق :

— وأنا (بقصد توفير الاجراءات) اسمى يعين

— يالها من معلومات ! والآن خبرينى يافيكلا . وأنت يايعين . لماذا تبديان لى النفور ، وباصرار ، عند ما ...

فقاطعه استرودوموف قائلا :

— ان ماشورينا تعتقد ، وليست ماشورينا وحدها فى هـذا الاعتقاد ، انك غير جدير بالاعتماد عليك . لأنك تضحك دائماً على كل شىء

فدار باكلين على عقبيه دورة كاملة وصاح :

— هذا هو الخطأ المألوف الذى ينزلق فيه الناس بخصوصى ياعزيزى يعين ! فأنا أولا لا أضحك دائماً . وحتى لو كنت أضحك دائماً ، فليس هذا سبباً لـكيلا تثقوا بى . وأنا ثانياً سبق أن تمتعت بثقتكم فى أكثر من مناسبة قبل الآن . وهذا دليل قاطع على أننى جدير بالثقة . فأنا رجل مخلص ياعزيزى يعين

فمضمض استرودوموف شيئاً بين أسنانه غير مسموع ، بيد ان باكلين استطرد من غير أن يبدو على وجهه أى أثر للابتسام :

— كلا . أنا لا أضحك فى جميع الأوقات ! أنا لست أخا مرح . وما عليك إلا أن تنظر إلى وجهى لتعرف صدق قولى !

فنظر اليه استرودوموف . والواقع ان باكلين حينما لا يكون ضاحكا ، وحين

يصمت عن الكلام ، تبدو سحنته ناطقة بالأسى بل تكاد تنطق بالرعب . فلا يبدو مضحكا ومتهكماً إلا حين يفتح شفتيه

ومع هذا لم يعلق استرودوموف بكلمة . والتفت باكلين الى ماشورينا ثانية :

— وكيف حال دراساتك ؟ هل أحرزت شيئاً من التقدم حقيقة فى فن العمل الخيرى الذى تخصصت فيه ؟ وهل من الصعب جداً حقا أن تساعدى مواطننا غفلا من التجربة والخبرة على أن يبرز إلى هذا العالم لأول مرة ؟

فأجابته ماشورينا بابتسامة الراضية عن نفسها قائلة :

— ليس فى ذلك صعوبة على الاطلاق ان اتفق له ألا يزيد حجمه على حجمك !

وكانت ماشورينا قد أدت أخيراً امتحان المولدات . وهى سليلة أسرة أرستقراطية فقيرة . وقد تركت مسقط رأسها فى جنوب الروسيا منذ نحو سنتين وليس فى جيبها أكثر من ستين قرشا ، فلما وصلت إلى موسكو دخلت معهداً للتوليد وبذلت جهداً كبيراً جداً للحصول على الشهادة المطلوبة . انها غير متزوجة وعفيفة جداً . وقد علق بعض الخبثاء على طهارة ذيلها بقوله :

— لا عجب !...

استناداً إلى شكلها القبيح ولكننا نسمح لأنفسنا أن نقول عن تلك الصفة التى توافرت فيها انها رائعة ونادرة

وقد ضحك باكلين من ردها اللاذع وقال لها :

— مرحى ياعزيزتى ! لقد سحقتنى ! ولكن الذنب ذنبى ، فمن الذى قال لى أن أخلق هكذا قزما ؟! وانى لأعجب أين ذهب رب الدار ؟

وهكذا غير باكلين موضوع الحديث الذى كان يؤلمه جداً . فهو لم يستطع رياضة نفسه على استساغة قصر قامته أو النقصان العام فى تكوينه . وكان شعوره شديداً على الخصوص لأنه كان شديد الافتتان بالنساء ، وكان مستعداً للتضحية بأى شىء كى يبدو جذابا فى نظرهن

ان شعوره بزراية مظهره كان أشد إيلاما له من وضاعة أصله أو هوان مركزه فى المجتمع . ان والده قد بدد بادمان الشراب فى أواخر حياته كل ماجمعه بوسائل معظمها غير مشروع فى دوائر المحاكم . وهكذا وجد ابن شمشون (فهذا هو الاسم المضحك الذى قيد به فى شهادة الميلاد) نفسه شبه معدم عند وفاة أبيه . وأفاده التعليم فى مدرسة التجارة معرفة طيبة باللغة الألمانية . فالتحق

بوظيفة كتابية مرتبها خمسمائة روبل فى السنة عليه أن يعيش منها ويعول عمة مقعدة وأختا حدباء !

وفى الوقت الذى بدأت فيه قصتنا كان باكلين فى الثامنة والعشرين ، له عدد كبير من الأصدقاء من بين الطلاب والشباب الذين يحبونه لروحه الساخرة ولدعاباته البريئة . وإن كانوا أحيانا يهاجمونه بقسوة لاطلاعه الواسع فى جانب واحد من جوانب الآراء والمذاهب الفكرية

وعاد يستبطىء قدوم نجدانوف :

— ما أكثر قلقه فى المدة الأخيرة ! عسى ألا يكون عاشقاً !

فزمجرت ماشورينا قائلة :

— لقد ذهب الى المكتبة . أما الحب فلا وقته يسمح ولا الفرصة تسنح

— أريد أن أراه لأتحدث اليه فى أمر هام من أمورنا المشتركة . . .

وصاحت ماشورينا فجأة وقد تعلقت عيناها بالباب وأشرقتا بشعاع داخلى أكسبهما رقة وحرارة وعذوبة :

— هاهو ذا نجدانوف !

وانفتح الباب . وكان الداخل فى هذه المرة شاباً فى الثالثة والعشرين يتأبط حزمة من الكتب . وكان هو نجدانوف بعينه



نجدانوف

لما لمح نجدانوف الزائرين فى حجرته وقف فى فرجة الباب وأجال فيهما بصره ، ثم قذف بقبعته بعيداً ، وأسقط الكتب على الأرض ، وسار الى الفراش حيث جلس على حافته ، وطاف بوجهه الشاحب الوسيم تعبير يدل على الضيق والاستياء وبدا وجهه أشد شحوباً من حقيقته ، بالقياس الى شعره الأحمر القاتم المتموج

وأشاحت ماشورينا عن هذا المنظر بعينها ، وعضت شفتها أما استرودوموف فانه غمغم :

— وأخيراً . . !

وكان باكلين أول من اقترب منه ، وخاطبه قائلا :

— ماذا جرى يا ألكساى ديمتريتش ، يا هملت الروسيا ؟ ! هل حدث شىء ؟ أم كل ما هناك أنك تشعر بهبوط الهمة عموماً ، وبغير سبب خاص ؟

فصـــاح به نجدانوف محتداً :

— كف عن هذا يا مفيستوفوليس الروسيا ! (وهذا من أسماء الشيطان المشهورة وهو الشخصية التى اشترت من فاوست روحه فى رواية جيته الخالدة) فلست فى حالة تسمح لى بأن أتراشق معك بالنكات فى الوقت الحاضر

— أعصابك مضطربة . أم لعل شيئاً حدث فعلا ؟

— لا شىء على وجه التخصيص سوى أنه بات من المستحيل أن يطل الانسان بأنفه فى هذه البلدة الكريهة من غير أن يصدم بشىء من السوقية أو الغباء أو المظالم . لقد أصبحت الحياة هنا لا تطاق بعد اليوم !

فسأله استرودوموف :

— ألهذا السبب ورد فى إعلانك الذى نشرته الصحف أنك تبحث عن عمل وليس لديك أى مانع من مغادرة بطرسبورج ؟

— نعم . فانى أرحب بالرحيل من هنا بغاية السرور ، إن وجد ذلك الأحمق الذى يعرض علىّ عملا عنده . . !

فقال باكلين :

— ولكن هل حقاً لم تسمع أنباء سيئة ؟

فقفز نجدانوف من السرير كأنه كرة من المطاط وصاح بصوت مجلجل :

— وماذا تريد أكثر من ذلك ؟ . إن نصف الروسيا يموت جوعاً ! وصحيفة أخبار موسكو تريد أن تدخل الدراسات الكلاسيكية . وأما نوادى معاونة الطلبة فأغلقت . والجواسيس نجدهم فى كل مكان ، وكذلك الضغط والأكاذيب والخيانة والغش ! وكل هذا لا يكفيه ! إنه يريد نبأ جديداً سيئاً ! ويظننى أمزح !

ثم لم يلبث أن أضاف بصوت منخفض قائلا :

— بازانوف . قبضوا عليه . سمعت ذلك فى المكتبة

فرفعت ماشورينا واسترودوموف رأسيهما فى وقت واحد . واستطرد نجدانوف :

— لست أدرى من الذى وشى ببازانوف . .

— صديق له ولا ريب . فالأصدقاء مشهورون بهذا . . .

أما استرودوموف فتبادل نظرة مع ماشورينا ثم قال بصوته العميق :

— لقد وصل خطاب من موسكو . من غاسيلى نيقولايفتش

فاضطرب نجدانوف قليلا وغض بصره ثم سأل :

— وماذا يقول ؟

فأجابه استرودوموف وهو يشير الى ماشورينا بعينيه :

— يريدنا أن نذهب الى هناك معها

— أيريدونها هى أيضاً ؟ . .

— نعم . . نعم . . .

— وما وجه الصعوبة ؟ . .

— النقود طبعاً . . .

فنهض نجدانوف عن الفراش واتجه الى النافذة ثم سأل :

— وكم تريدان ؟

— لا أقل من خمسين روبلا . . .
فصمت نجدانوف قليلا . ثم همس وهو ينقر على زجاج النافذة :
— لا توجد معى نقود فى الوقت الحاضر . ولـكن يمكننى أن أحصل على شىء منها . فـكيف وصل إليك الخطاب يا استرودوموف ؟
فصمت استرودوموف ، وظهر عليه التردد فى الجواب
فصاح باكلين :
— لماذا تحاولون إخفاء الأمور عنى ؟ ألست جديراً بثقتكم ؟ وبفرض أننى لا أوافقكم كل الموافقة فيما تحاولونه ، هل تظنون لحظة واحدة أننى يمكن أن أشى بكم وأفشى سركم ؟
فأجابه استرودوموف قائلا :
— ربما أفشيت السر عن غير قصد
— لا بقصد ولا عن غير قصد . كل ما هناك أن الذوق ينقصكم. ولا قدرة لديكم على تمييز أصدقائكم الحقيقيين . انكم مثلا فى حاجة الى المال . وليس لدى نجدانوف شىء منه . وفى استطاعتى أنا أن أجد لـكم هذا المال
فالتفت نجدانوف من ناحية النافذة وقال :
— كلا كلا . لاضرورة لهذا . لأنى أستطيع الحصول على النقود . سأسحب جزءاً من مخصصاتى مقدماً . والآن فلننظر فى الخطاب يا استرودوموف
وظل استرودوموف ساكناً برهة . ثم نظر فيما حوله ووقف ثم انحنى وشمر أحد ساقى سرواله واستخرج بعناية ورقة زرقاء من عنق حذائه الطويل، ونفخ فيها لسبب غير ظاهر ثم سلمها الى نجدانوف الذى تناولها وبسطها وقرأها بعناية ثم قدمها الى ماشورينا ، فوقفت وقرأتها كذلك ثم ردتها الى نجدانوف مع أن باكلين كان قد بسط إليها يده ليأخذها . فهز نجدانوف كتفيه ثم أعطى الخطاب السرى لباكلين الذى قرأ الخطاب ثم زم شفتيه ووضعه فوق المائدة وعندئذ أشعل استرودوموف عود ثقاب كبير تفوح منه رائحة كبريت نفاذة ، ورفع الخطاب فوق رأسه ليراه الحاضرون جميعاً . ثم أشعل فيه النار وألقى الرماد فى المدفأة . ولم يتحرك أحد أو ينطق بكلمة أثناء هـذه العملية ، بل كانت عيونهم جميعاً شاخصة الى الأرض
وانقضت دقيقتان على هذا النحو ، شعر فيهما كل واحد بعدم ارتياح ، الى

أن هتك باكلين حجاب الصمت قائلا :

— والآن ؟ هل فى النية قبول تضحيتي التى أقدمها على مذبح الوطن؟ هل يسمح لى أن آتى إن لم يكن بالمبلغ كله فبخمسة وعشرين روبلا من أجل القضية العامة ؟

وعندئذ انفجر نجدانوف الذى يبدو أن ضيقه كان يلتمس فرصة للاندلاع :

— قلت لك إننى لا أريد نقوداً . قلت لك هذا . لا أريد . لا أريد! لن أسمح بهذا ولن آخذها منك ! سأحصل على المبلغ المطلوب فوراً ولست بحاجة الى معونة أحد ؟

— أراك يا عزيزى لست ديموقراطياً مع أنك ثورى !

— ولماذا لا تقول باختصار إننى أرستقراطى ؟

— وكذلك أنت فعلا الى حد ما

فضحك نجدانوف ضحكة مغتصبة وقال :

— أراك تلمح الى أننى ابن غير شرعى . وفى استطاعتك أن توفر على نفسك مجهود التلميح يا صاحبي . فلست حرياً أن أنسى هذا

فطوح باكلين ذراعيه يائساً وقال :

— ماذا دهاك يا أليوشا ؟ كيف أمكنك أن تلتوى بكلماتى على هذا النحو؟ أكاد لا أعرفك اليوم لما عراك من التغير . إن القبض على بازانوف أزعجك . ولكنه كان شديد الاهمال قليل الحرص والحذر ... وكان عليه أن يدارى آراءه محافظة على زملائه الذين يخشى الآن أن يجرهم وراءه.

فصرخ استرودوموف قائلا :

— من قال لك هذا ؟ إن بازانوف على خلق ولن يشى بأحد . ثم لاتنس أنه ليس فى مقدور كل واحد أن يلتزم الحذر يا مستر باكلين

واستاء باكلين وهم أن يقول شيئاً لولا أن نجدانوف قاطعه قائلا :

— أقترح أن نترك السياسة جانباً فى الوقت الحاضر

فساد الصمت ، إلى أن قطعه باكلين أيضاً بقوله :

— لقد التقيت اليوم بالناقد العظيم اسكورويكين . ووجدته كعادته يغلى بالحماسة . انه انسان خطر على من يتصلون به من الشباب . إن هذا الرجل ينادى أن أى عمل فنى قديم لا قيمة له لمجرد أنه قديم. ولو سلمنا بهذا لانقلبت

الفنون نوعاً من موضات الأزياء . وبهـذا يفقد الفن خلوده ولا تصبح له فائدة . فلماذا نفعل ذلك بالفن مع أننا لا نناقش مبادىء الرياضة مهما كانت عتيقة ؟

ولم يتلق باكلين رداً على سؤاله . لأن الباقين أطبقوا أفواههم فى إصرار، فقال :

— أنتم قوم لا فائدة فيهم . ومن الخير لى أن أنصرف

وتناول قبعته ، ثم توقف عن الانصراف لأن صوتاً عميقاً سمع فى الدهليز . وكان هذا الصوت ينم عن لطف وتهذيب وتربية حسنة . .

— هل المستر نجدانوف فى البيت ؟

فتبادل الجميع نظرات الدهشة . وتكرر السؤال كله باللهجة العذبة نفسها. وعندئذ انبرى نجدانوف للاجابة قائلا :

— نعم . موجود

فانفتح الباب برقة . ودخل منه رجل فى نحو الأربعين من عمره. ثم نزع قبعته عن رأسه الجميل المقصوص الشعر حديثاً

وكان الرجل طويل القامة ، وثيق التركيب ، وسيما ، يرتدى معطفاً جميلا من القماش له ياقة هائلة من الفراء ، مع أن الوقت كان أواخر شهر ابريل

ووقعت أناقته وقامته وحسن سمته وأدب سلوكه موقعا قويا من نجدانوف وباكلين ، ثم من ماشورينا واسترودوموف على ما فيهما من مقاومة لكل هذه التأثيرات ، فاذا بهم جميعا ينهضون وقوفا لدخوله



وظيفة جديدة

اتجه هذا الرجل الأنيق المطهم نحو نجدانوف بابتسامة ودية وقال :

— لقد حظيت من قبل بمقابلتك ، بل وبالتحدث اليك يا مستر نجدانوف أول أمس ، إن كنت تذكر ، فى المسرح

وتوقف الزائر عن الكلام ، وكأنه ينتظر من نجدانوف أن يعلق بكلمة ، بيد أن نجدانوف اكتفى بالانحناء قليلا وقد تضرج وجهه بالحمرة . فاستطرد الزائر :

— لقد أتيت لزيارتك بصدد إعلانك الذى استلفت نظرى فى الصحف . وأود أن نتحدث معاً فى هذا الموضوع إن لم يكن عند ضيوفك مانع

وانحنى لماشورينا ، ثم أومأ بيده المغلفة بقفاز رمادى فى اتجاه باكلين واسترودوموف ، فأجابه نجدانوف بشىء من الارتباك :

— على الاطلاق . هلا جلست ؟

فانحنى الزائر ، ثم جذب لنفسه كرسياً ، بيد أنه لم يجلس لأنه وجد جميع الآخرين وقوفاً بل نظر فى أرجاء الغرفة بعينيه المتألقتين وإن كانتا نصف مغمضتين . فصاحت ماشورينا فجأة :

— الى اللقاء يا ألكساى ديمتريتش سأعود قريباً

وقال استرودوموف :

— وأنا كذلك . . .

ولم تعر ماشورينا الزائر أى التفات عندما مرت به ، بل اتجهت مباشرة الى نجدانوف فهزت يده بحرارة ثم غادرت الحجرة من غير أن تنحنى لأحد . وتبعها استرودوموف محدثاً فى مشيته ضجة بحذائه لا ضرورة لها

وشيعهما الزائر بنظرة مهذبة وإن كانت تنم عن استطلاع يسير وبعد ذلك وجه نظرته الى باكلين ، على أمل أن يقتفى أثر صاحبيه . بيد أن باكلين

انسحب الى ركن واستقر فيه وكانت تداعب شفتيه ابتسامة غامضة مكتومة منذ ظهر هذا الغريب . وجلس الزائر ونجدانوف معاً ثم قال الزائر بزهو كالتواضع :

— اسمى سيباجين . ولعلك قد سمعت بى !

وهنا يجب أولا أن نروى كيف التقى به نجدانوف فى المسرح ...

كانت الرواية التى تمثل من تأليف استروفسكى وعنوانها « إياك أن تجلس فى زحافة سواك » وذلك بمناسبة قدوم الممثل العظيم سادوفسكى من موسكو . ومن المعروف أن دور « روزا كوف » فى هذه الرواية من أحب الأدوار التى يقوم بها هـذا الممثل العظيم . وقبل الغداء فى ذلك اليوم مباشرة توجه نجدانوف الى المسرح ليحجز تذكرة ، فوجد زحاماً عظيما أمام الشباك . ولما توجه الى عامل التذاكر وفى نيته أن يحصل على مكان فى أعلى التياترو ، اذا بضابط كان يقف وراءه يلقى من فوق رأس نجدانوف بورقة قيمتها ثلاث روبلات ويصيح بالرجل :

— إن هذا السيد (يعنى نجدانوف) ربما احتاج الى فكة أما أنا فلا أريد الباقى . فأعطنى تذكرة فى مقاعد الأوركسترا من فضلك ، وأسرع لأنى متعجل !

فاذا نجدانوف يصيح أيضاً فجأة :

— عفوك يا سيدى . أنا أريد لنفسى تذكرة فى مقاعد الأوركسترا !

ثم قذف الى الرجل بثلاثة روبلات ، هى كل ما كان يملكه من النقود . ثم أخذ التذكرة ووجـد نفسه فى المساء يحتل مكاناً فى الحلقة الارستقراطية بالمسرح

كان زرى الثياب ، لا يرتدى قفازاً ، وحذاؤه قذر . كان غير مستريح وساخطاً على نفسه لعدم شعوره بالراحة فى ذلك الموضع

وكان يجلس عن يمينه جنرال تلمع فوق صدره كمية كبيرة من النياشين والأوسمة ، أما عن يساره فكان هـذا الأنيق سيباجين بعينه الذى كان ظهوره بعد يومين فى حجرة نجدانوف مبعثاً لدهشة كبيرة لدى ماشورينا واستروذوموف

وكان السيد الجنرال يحملق فى نجدانوف بين لحظة وأخرى ، كما يحدق

الانسان فى شىء غير مستحب ، موجود فى غير موضعه بحيث يثير الاستياء .
أما سيبياجين فكان ينظر اليه من جانب عينه . بيد أن نظراته لم تكن دالة على العداء والنفور

ولا ريب أن جميع المحيطين به كانوا من الشخصيات التى يقام لها وزن . ولما كانوا جميعاً يعرفون بعضهم بعضاً ، فقد أخذوا يتبادلون الملاحظات والتعليقات والتحيات ، ويتقاذفون ذلك كله من فوق رأس نجدانوف الساكن كالصنم ، وقد انكمش فى المقعد الواسع وازداد شعوره بأنه منبوذ . ولم يجد فى تمثيل سادوفسكى ولا فى تأليف استروفسكى إلا لذة يسيرة ، وشعر بالمرارة ترسخ فى فؤاده ، الى أن حدث فجأة أن جاره من جهة اليسار وجه اليه - ويا للعجب ! - فى أثناء فترة الاستراحة الحديث فى أدب ورقة وبشىء من الخجل . سأله عن رأيه فى الرواية باعتباره ممثلا لشاب من الجيل الجديد

وشعر نجدانوف بقلبه يدق فى صدره بسرعة ، واستولى عليه الارتباك ، بيد أنه تغلب على ذلك الاحساس وأفاض فى شرح وجهة نظره ، فجرفه الموضوع ورفع صوته بالكلام لدرجة أزعجت الجنرال الجالس عن يمينه . إلا أن محدثه كان يصغى اليه بانتباه واهتمام وأدب . وفى الاستراحة التالية تحدث اليه مرة أخرى لا عن الرواية ، بل عن أمور عامة فى الحياة والعلم والسياسة

وبعد انتهاء التمثيل استأذن سيبياجين من نجدانوف بكل أدب ولكن من غير أن يقدم اليه اسمه أو يسأله عن اسمه وفيما هو ينتظر عربته التقى مصادفة بصديق له هو الأمير ج . الياور القيصرى الذى قال له بصوت كان يخرج من خلال شاربه المعطر الضخم :

— كنت أرقبك من خلال مقصورتى . أتدرى الى من كنت تتحدث ؟

— كلا . أتعرفه أنت ؟ إنه شاب ذكى . من هو ؟

فمال الأمير فوق أذنه وهمس بالفرنسية :

— إنه أخ لى . . . غير شرعى طبعاً . . . اسمه نجدانوف . وسأروى لك كل شىء عنه يوماً ما . ولم يكن والدى يتوقع أن يرزق به . لهذا سماه نجدانوف (ومعناه فى اللغة الروسية غير المنتظر) إلا أنه شمله برعايته كما يجب ، وأوقف له مخصصات يعيش منها على نحو ما . وهو ليس غبياً ، وقد تلقى تعلما جيداً والفضل فى هذا لأبى . إلا أنه ضل الطريق ، وأظنه الآن فى عداد الجمهوريين .

إنه شخص لا يطاق . الى اللقاء . فهذه عربتي

وفي اليوم التالي وقع نظر سيياجين على إعلان نجدانوف في الصحف وذهب لزيارته . ومن هنا نستأنف سرد ما حدث في هذه الزيارة

▭

قال سيياجين وهو يقف يتفحص نجدانوف في وقار :

— رأيت في إعلانك أنك تبحث عن وظيفة . وأحب أن أعلم إن كنت تقبل أن تأتي معي . فاني متزوج وعندي ابن في الثامنة وهو طفل ذكي جداً . ونحن في العادة نقضي الصيف والخريف في الريف بولاية س . على مسافة خمسة أميال من المدينة التي تحمل هذا الاسم . وأود أن تأتي لتقيم معنا مدة العطلة كي تعلم ابني التاريخ الروسي والنحو . وأظن أن هذين هما الموضوعان اللذان ذكرتهما في إعلانك . وأعتقد أنك ستستريح للاقامة معنا وستحب تلك البقعة . فلنا هناك بيت كبير وحديقة ، والجو رائع ، وبالقرب منا نهر . فهل تحب أن تأتي ؟ ولا أعتقد أن الاتفاق المادي سيكون عقبة بيننا

وظل نجدانوف يرقب سيياجين وهو يتكلم ، فلاحظ صغر رأسه المائل قليلا الى أحد الجانبين ، وضيق جبينه الذي لا يخلو من ذكاء ، وأنفه الروماني الدقيق ، وعينيه اللطيفتين ، وشفتيه المستقيمتين اللتين كان ينساب الكلام منهما في رشاقة ، وكان نجدانوف يحدث نفسه :

— ما معنى هذا ؟ لماذا حضر هذا الرجل للبحث عني ؟ ماهو وجه الشبه بيني وبين هذا الأرستقراطي ؟ ماذا يريد مني ؟

وكان هذا التفكير يستغرقه بحيث لم يبادر الجواب عند ما فرغ سيياجين من كلامه وانتظر جوابه . فالتفت إلى الركن الذي يجلس فيه باكلين وظن ان وجوده هو الذي يمنع نجدانوف من الجواب ، فرفع حاجبيه وكرر السؤال ، فانتبه نجدانوف وقد أخذ على غرة ، وأسرع يقول :

— طبعاً أحب .. بكل سرور .. ولكنني أريد أن أعترف .. انني حقيقة دهشت ، لأنه ليست عندي توصيات كما هو مألوف

— أنت مخطيء ياعزيزي . فأنا معروف بآرائي التقدمية . ثم ان حديثنا تلك الليلة جعلني أعجب بك . فنحن فيما عدا روح التطرف التي يتميز بها الشباب نتفق في كثير من وجهات النظر . وقد راقت لي حماستك

وكان سيياجين يتحدث من غير تردد ، والـكلمات تفيض منه كالجدول المتدفق ، ثم استطرد بعد برهة :

— أما زوجتي فتشاركني في تفكيري . بل إن آراءها أشبه بآرائك منها بآرائي . وليس هذا غريباً لأنها أصغر مني سناً بكثير . وعندما طالعت اسمك في الصحيفة غداة مقابلتنا ووجدت اسمك وعنوانك على غير المألوف في هذه الاعلانات أدهشتني هذه المصادفة ، بعد أن سمعت اسمك في المسرح . وخيل إلى انى ألمح أصبع القدر . وأرجو أن تغفر لى هذا الاعتقاد الخرافى . وأما عن التزكيات فلا أظنها ضرورية في هذه الحالة . فأنا أميل اليك ، وقد تعودت أن أثق باحساسي الداخلي . فهل لى أن أطمع فى قبولك ؟

— أجل . سآتي معك . وسأجتهد أن أكون جديراً بثقتك . ولكن هناك شيئاً واحداً أحب أن أوضحه . فى مقدورى أن أقوم بتعليم ابنك . ولكنني لست مستعداً أن أقوم برعايته . لأنى لا أريد أن أتورط في أى شيء يمكن أن ينال من حريتى التامة ...

فأشاح سيياجين يده في حركة هينة كمن يطرد ذبابة وقال :

— لك أن تطمئن من هذه الوجهة . فهذه ليست طريقتنا . كل ما أريده منك أن تكون مؤدبا لابنى لا مربية . والآن لنتكلم فى المادة الحقيرة !

ولم يدر نجدانوف ماذا يقول فسكت !

ومال سيياجين الى الأمام ثم لمس نجدانوف بأطراف أصابعه وقال :

— أعتقد ان خيار الناس يسوون هذه المسائل فى كلمتين . سأعطيك مائة روبل فى الشهر وجميع نفقات السفر . فهل تقبل ؟

فاحمر وجه نجدانوف وقال :

— هذا أكثر مما كنت أنوى أن أطلب .. لأنى كنت ..

فقاطعه سيياجين قائلا :

— إذن سأعتبر اننا اتفقنا . وانك منذ الآن من أعضاء البيت

ثم نهض من مقعده وقد بدا عليه المرح والاستبشار وكأنه تلقى هدية سنية ، وأطلق لمرحه العنان وهو يقول له :

— سنسافر بعد يوم أو يومين . فلست أحب شيئاً كاستقبال الربيع فى الريف . مع انى كثير المشاغل فى المدينة .. وأرجو منك أن تعتبر أن شهرك

الأول ابتدأ اليوم . وقد سافرت زوجتى وابنى ولعلهما الآن فى موسكو . وسنجدهما فى أحضان الطبيعة عند مانصل . أما نحن فسنسافر وحدنا كالعزاب !

وبحركة رشيقة استخرج من جيب معطفه حافظة سوداء مطعمة بالفضة أخرج منها بطاقة قدمها إلى نجدانوف :

— هذا عنوانى . فاحضر لمقابلتى غداً فى الساعة الثانية عشرة كى نتحدث أكثر مما فعلنا الآن وأصارحك ببعض آرائى فى التربية . ونحدد أيضاً موعد سفرنا

وتناول سيباجين يد نجدانوف فأبقاها فى يده ، ثم مال وخفض صوته وقد جعل رأسه الى أحد جانبيه :

— وبهذه المناسبة ، إن كنت فى حاجة الى نقود أرجو ألا تحتشم منى . ففى استطاعتى أن أعطيك أجر شهر مقدماً

وحار نجدانوف ماذا يقول ، فنظر فى حيرة الى ذلك الوجه المطوف الذى يطالعه عن قرب بابتسامة مشجعة

وهمس سيباجين مرة أخرى :

— ألست فى حاجة الى شىء من النقود ؟

وأخيراً قال نجدانوف بجهد :

— سأخبرك غداً إن كنت بحاجة الى شىء

فأطلق سيباجين يد نجدانوف واستدار ليخرج وهو يقول :

— حسناً . الى اللقاء اذن . حتى الغد

واذا نجدانوف يسأله فجأة :

— أحب أن أعرف من الذى أخبرك باسمى ؟ فقد قلت لى منذ برهة إنك سمعته فى المسرح

— شخص معروف لك جيداً . من أقربائك فيما أظن . الأمير ج . .

— الياور ؟ . .

— نعم . . .

فاحمر وجه نجدانوف ولم يقل شيئاً . فهز سيباجين يده مرة أخرى من غير كلام فى هذه المرة ، وانحنى له أولا ثم لباكلين ، ووضع قبعته على رأسه عند الباب ثم انصرف وعلى وجهه أمارات الرضى عن نفسه

فالنتينا الحسناء

انتا الآن فى حجرة الجلوس من ذلك البيت الكبير المشيد بالصخر ذى الواجهة اليونانية ، الذى أقامه فى الربع الأول من القرن التاسع عشر والد سيياجين ، الذى كان من كبار الملاك المعروفين ، كما كان معروفاً بشىء غير الثراء أيضاً ، كان معروفاً بتحرره فى استخدام قبضتيه

وفى هذه الحجرة كانت تجلس زوجة سيياجين ، « فالنتينا ميهايلوفنا » وهى فى الحقيقة سيدة جميلة جداً ، وقد جلست هناك تتوقع وصول زوجها بين لحظة وأخرى منذ جاءتها برقية بموعد قدومه

كان كل شىء فى الحجرة ساحراً أنيساً ، من الجدران المبطنة بالورق الجميل ، إلى الستائر الثمينة ، والتحف المختلفة الأنواع والأحجام فى تناسق بديع : إلى أشعة شمس مايو التى تتسلل من النوافذ الواسعة المفتوحة ، إلى الهواء الساكن المحمل بعبير زنابق الوادى التى كانت باقات كبيرة منها قد وزعت فى أرجاء الحجرة ، وفى الحين بعد الحين يهب نسيم عليل يأتى من الحديقة الغنية بأزهارها ورياحينها

يالها من صورة بديعة ! بل يا لهذا كله من اطار بديع للسيدة فالنتينا ميهايلوفنا سيياجينا ، التى كانت تعطى لكل ماحولها نعمة الحياة ولمسة التعبير !

كانت امرأة طويلة القامة فى نحو الثلاثين من عمرها ، ذات شعر بنى قاتم ، قمحية اللون . أما عيناها فكانتا ذات عمق محلى عجيب .. وشفتاها الشاحبتان تميلان إلى الامتلاء . وخاصرتها تستلفت النظر بدقتها وهى منحنية تنسق مجموعة من الزهر كانت تنسقها فى زهرية صينية ثمينة ، أو تسوى خصلات شعرها وهى تبتسم لصورتها فى المرآة وقد أسبلت عينيها ، فلا يسع من يراها سوى أن يجزم انه ليس فى الامكان أن تقع العين على ما هو أشد منها فتنة وسحراً

واندفع الى الحجرة فجأة غلام متموج الشعر فى نحو التاسعة من عمره ،

لم يلبث أن وقف جامداً فى مكانه حين وقع بصره عليها . وكان يرتدى ملابس القرصان التي تكشف عن ساقيه ، وقد كثرت فى زينته آثار الأدهنة والمساحيق

وسألته فالنتينا ميهايلوفنا بصوت يبارى عينيها فى النعومة المخملية :

— ماذا تريد يا كوليا ؟

فشرع الغلام يقول فى ارتباك :

— لقد أرسلتنى خالتى يا أماه كى آتيها بشىء من زنابق الحقل كى تزين بها حجرتها ، لأنها لم تحصل على شىء منها

فوضعت فالنتينا ميهايلوفنا يدها تحت ذقن ابنها الصغير ورفعت رأسه المدهون بمعجون غزير وقالت له :

— قل لخالتك ان فى وسعها أن تطلب ماتشاء من الأزهار من البستانى . أما هذه فلى أنا . ولا أريد أن يلمسها أحد . قل لها انى لا أحب أن يعبث أحد بترتيباتى . أتستطيع أن تعيد عليها ما قلته لك ؟

فقال الغلام هامساً :

— نعم أستطيع ...

— أعده على الآن إذن

— سأقول ... سأقول ... انك لا تريدين

فضحكت فالنتينا ميهايلوفنا . وكانت ضحكتها ناعمة أيضاً ككل ما فيها

— لا يمكن حتى الآن أن نكلفك بتبليغ الرسالات . ولكن لا بأس . فى وسعك أن تقول لها أى شىء يخطر لك

فبادر الغلام يقبل يد أمه المزينة بالخواتم واندفع خارجاً

وتابعته فالنتينا ميهايلوفنا بنظرها ثم تنهدت . ومشت إلى قفص مصنوع من أسلاك ذهبية ، كان يقف فى جانب منه ببغاء أخضر اللون وقد تشبث فى عود من أعواد القفص بمخالبه ومنقاره . فجعلت تعابث الببغاء وتغيظه برهة بطرف أصبعها . ثم استلقت فوق أريكة ضيقة وتناولت عدداً من أعداد مجلة العالمين الفرنسية المشهورة التي تصدر فى باريس ، من فوق مائدة صغيرة منقوشة ، وشرعت تقلب صفحاتها

ونبهتها رنة سعال مهذب فنظرت حولها لترى خادماً وسيما فى كسوة أنيقة ورباط عنق أبيض واقفاً بجوار الباب المفتوح . فسألته بذلك الصوت الناعم :

— ماذا تريد يا اجافون ؟

— ان سيميون بتروفتش كولوميتزيف موجود هنا . فهل أدخله ؟

— بالتأكيد . واخبر ماريانا فيكنتيفنا أن تأتى إلى حجرة الجلوس

وقذفت فالنتينا ميهايلوفنا بمجلة العالمين إلى المائدة . ثم رفعت عينيها إلى أعلى كأنها تفكر . وهو وضع يناسبها كثيراً

ونستطيع أن ندرك من طريقة دخول سيميون بتروفتش كولوميتزيف فى ألفة تامة إلى حجرة الجلوس ، ان هذا الشاب الذى يناهز الثانية والثلاثين من عمره ، والذى قبل يد فالنتينا ميهايلوفنا باحترام بعد أن انحنى إلى أحد جانبيه ، ليس مجرد جار من أولئك الجيران الريفيين من أصحاب الضياع ، وإنما هو قطب من أقطاب الطبقة العالية فى مجتمعات بطرسبورج . وكانت ثيابه على آخر طراز انجليزى . والمنديل الأبيض المفهفاف يبرز من جيب سترته العلوى باطاره الملون. واللونوكل يهتز معلقا من شريط أسود . وأما لون قفازه فكان منسجما مع لون بنطلونه الرمادى . كان حليق الذقن قصير الشعر ، ولكن فى ملامحه شيئاً كثيراً من الأنوثة ، ولا سيما عيناه الواسعتان القريبتان احداهما من الأخرى ، وأنفه الصغير المسطح . وشفتاه الحمراوان الممتلئتان . فهو على الجملة شديد التعلق بمظاهر أرستقراطيته ، ولعل هذا راجع الى إحساسه بأن أجداده كانوا فى يوم من الأيام من البستانيين ...

— كنت أظن ان زوجك سيكون هنا فى هذا الوقت ...

فنظرت اليه نظرة جانبية وسألته بمكر :

— وهل كنت لاتأتى إلا لذلك ؟

— فالنتينا ميهايلوفنا ! كيف تقولين شيئا كهذا ؟

— لابأس . اجلس . سيكون زوجى هنا بعد قليل . فقد بعثت الى المحطة بعربة تأتينا به . فلو انتظرت قليلا لحظيت برؤياه . كم الساعة الآن ؟

فاستخرج كولوميتزيف من جيب صداره ساعة ذهبية كبيرة أراها لفالنتينا ميهايلوفنا بعد أن نظر فيها قائلا :

— تجاوزت الثانية بنصف ساعة . ألم ترى هذه الساعة من قبل ؟ انها هدية من الأمير الصربى اوبرنوفتش . انظرى ! هذه هى الحروف الأولى من اسمه منقوشة عليها . فنحن صديقان حميمان وكثيراً ما نخرج للصيد معا . وهو



« ألم تر هذه الساعة من قبل ؟ إنها هدية من الأمير أوبرنوفتش »

رجل ذو قبضة حديدية كما ينبغى لأى حاكم أن يكون . ولا يسمح لأحد أن يستغفله

وألقى كولوميتزيف بنفسه فى مقعد كبير ، ثم وضع احدى ساقيه على الأخرى وراح ينزع قفازه الأيسر على مهل . ثم قال :

— اننا بحاجة ماسة إلى رجل مثله فى هذه الولاية

— ماذا أسمع ؟ ألا تعجبك الحكومة ؟

— انى أدين للحكومة بالطاعة ولاشك . بيد انى أريد منها مزيداً من الحزم

— لست على رأيك . وانى لأعجب .. أين ماريانا ؟

وجذبت حبل الجرس فدخل خادم سألته :

— لقد طلبت أن ترسلوا ماريانا فيكنتيفنا إلى هنا . ألم تبلغوها ذلك ؟

ولم يتسع الوقت أمام الخادم للرد ، لأن شابة ظهرت وراءه فى فرجة الباب. وكانت ترتدى ثوباً واسعاً قاتماً ، وقد قصت شعرها فبدا قصيراً بشكل ظاهر

وكانت هذه الفتاة هى ماريانا فيكنتيفنا سينيتسكا ، بنت أخت سيباجين . وقالت ماريانا وهى تقترب من زوجة خالها :

— إنى آسفة جداً يافالنتينا ميخايلوفنا . فقد كنت مشغولة

وانحنت نحو كولوميتزيف . ثم ذهبت الى الركن فجلست على مقعد صغير بالقرب من الببغاء التى راحت تصفق بجناحيها بمجرد أن رأتها . فنظرت اليها فالنتينا ميخايلوفنا وقالت لها :

— لماذا تنتحين جانباً ياماريانا ؟ أتريدين أن تكونى بالقرب من صديقتك الصغيرة ؟

ثم التفتت الى كولوميتزيف وقالت :

— تصور ياسيميون بتروفتش ان ببغاءنا عشقت ماريانا !

— هذا لا يدهشنى !

— ولكن هذه الببغاء لا تطيقنى !

— ياللعجب ! لعلك تغيظينها ؟

— كلا . لا أغيظها مطلقاً . بل انى أطعمها بالسكر . ولكنها لاتقبل أن تأكل شيئاً من راحة يدى . انها مسألة ميل أو نفور غريزى

فحدقت ماريانا فى فالنتينا ميخايلوفنا . وحدقت فالنتينا ميخايلوفنا فيها . فهاتان

المرأتان لا تحب احداهما الأخرى حباً غريزياً ...

وتبدو ماريانا بالقياس الى زوجة خالها عاطلة من الجمال . فهي ذات وجه مستدير وأنف معقوف وعينين رماديتين كبيرتين براقتين ، وشفتين رقيقتين، وحاجبين رفيعين . أما شعرها فبني غزير قصير . ولكن يبدو فيها على العموم طابع الجرأة والحماسة يشع من شخصيتها كلها . وكانت لهما يدان صغيرتان ، وكذلك قدماها صغيرا الحجم . فهي تذكر الانسان بتلك التماثيل الفلورنسية الصغيرة التي كانت مشهورة في القرن السادس عشر . أما حركاتها فرشيقة خفيفة

والواقع ان مركز مريانا في بيت سيباجين كان دقيقاً جداً . فقد كان والدها من أرومة بولندية ووصل الى رتبة الجنرال . ثم ضبط متلبساً بتبديد مبالغ طائلة من أموال الدولة . فحوكم وأدين وجرد من رتبته العسكرية ومن ألقاب الشرف ونفي الى سيبيريا . وبعد فترة من الزمن صدر عنه عفو فأعيد بيد انه كان قد تحطم تماماً فمات في حالة فقر مدقع

أما زوجته وهي شقيقة سيباجين فلم تستطع أن تحتمل الصدمة فماتت بعد وفاته بقليل . وتطوع الخال سيباجين فآوى ماريانا الصغيرة وهي طفلتهما الوحيدة . ولهذا فماريانا تكره حياتها عالة على هذا البيت وتتطلع الى استرداد حريتها بكل ما في روحها الشابة من قوة وحماسة وتشوق

كان هناك على الدوام صراع داخلي متصل بينها وبين زوجة خالها . ذلك ان فالنتينا ميهايلوفنا كانت تعتبرها دائماً من العدميين وأحرار الفكر . وأما ماريانا فكانت تحتقر زوجة خالها وتكرهها لأنها ترى فيها طاغية لاضمير لها . وكانت تبتعد بنفسها دائماً عن خالها سيباجين . بل وعن كل شخص في البيت . كانت تبتعد عنهم ولكنها لا تخشاهم لأن الطبيعة خلقتها لا تخشى أحداً

وجعل كولوميتزيف يتحدث في موضوع الديانة ورجالها ، وكيف أنه وإن كان متديناً لا يحتمل رؤية القسوس بشعرهم الطويل . وعندئذ قالت ماريانا :

— ان الشعر له تأثير غريب عليك ياسيميون بتروفتش . فأنت لا تطيق أن ترى شعر القسوس الطويل . وكذلك لا أحسبك تطيق منظر شعر مقصوص كشعري

فرفعت فالنتينا ميهايلوفنا حاجبيها ببطء . وكأنها تعجب من جرأة فتيات اليوم في حديثهن مع الرجال . أما كولوميتزيف فقال :

— انى طبعاً لا أتمالك نفسى من الأسف على شعر جميل كشعرك ياماريانا فيكنتيفنا ، فيذهب ضحية مقص الحلاق . بيد انشعرك القصير لايثير نفورى، بل لعله حرى أن يقلب أفكارى

وسكت كولوميتزيف برهة ثم قال لها باسماً :

— أحقاً يا ماريانا فيكنتيفنا أنك تنوين التدريس فى مدرسة القرية هذه السنة ؟

— وهل يهمك أن تعلم يا سيميون بتروفتش ؟

— بالتأكيد هذا الموضوع يهمنى جداً

— وهل تعترض عليه ؟

— إنىأعترض علىأن يتعرض العدميون للمدارس . إنى أفضل ألف مرة أن أسلم المدارس لرجال الدين فهم أسلم عقبى ويمكن مراقبتهم

— أحقاً ؟ . أنا على كل حال لم أقرر بعد ما سأفعله هذا العام فان الأمور فى العام الماضى لم تكن على أحسن ما يرام . لا بد لى أن أستعد

— يا للسماء ! ما كنت أعلم قبل اليوم أن تعليم حروف الهجاء للفلاحين مسألة تحتاج الى تحضير

وفى هذه اللحظة دخل كوليا الحجرة وهو يجرى صائحاً :

— ماما ! ماما ! حضر أبى

ودخلت من ورائه سيدة عجوز شهباء الشعر ضخمة الساقين على كتفيها شال أصفر فأيدت وصول بوريس

وكانت هذه السيدة هى خالة سيپياجين ، وتدعى أنا زاهاروفنا

وأسرع كل من فى الحجرة كى يستقبلوا على السلم الخارجى رب البيت . وأقبلت عربته تجرها أربعة جياد تخترق الطريق الممهد بين أشجار الحديقة . وكانت فالنتينا ميهايلوفنا التى وقفت فى المقدمة تطوق منديلها بأناقة أما كوليا فجعل يصرخ باغتباط

ولما جذب السائق البارع أعنة الخيل نزل حاجب أنيق ففتح الباب ووضع السلم المتحرك . فبرزت للمستقبلين ابتسامة بوريس اندريفتش سيپياجين . فألقت فالنتينا ميهايلوفنا ذراعيها البديعين حول عنقه برشاقة ، ثم تبادلا القبلات ثلاث مرات ودق كوليا الأرض بقدمه وراح يجذب سترة والده

من الخلف . فتحول الوالد عن زوجته وقبل خالته انا زاهاروفنا . وبعدذلك حيا ماريا وكولوميتزيف وأخيراً تفرغ لولده الصغير فرفعه من تحت ابطيه وقبله

وكان نجدانوف طيلة الوقت يتشاغل فى خجل بالنزول من العربة . وخلع قبعته ثم وقف بهدوء بجوار العجلة الأمامية ينظر من تحت حاجبيه . وكانت فالنتينا ميهايلوفنا وهى تقبل زوجها قد ألقت نظرة خاطفة ولكنها فاحصة على ذلك القادم الجديد لأن زوجها كان قد أنبأها من قبل أنه سيأتى معه بالمعلم الخاص

وتبع نجدانوف المجموعة الصاعدة على السلم . فلما وصلوا الىالبهو ، جعل سيبياجين يفتش عنه بعينيه ثم قدمه الى زوجته ، والى انا زاهاروفنا ، والى ماريانا ، ثم قال لولده كوليا :

— هذا معلمك يا كوليا . فاحرص على أن تطيعه فى كل ما يطلبه منك والآن مد له يدك وصافحه

فمد كوليا يده على استحياء وحدق فيه جيداً . فلما لم يجد فى معلمه الجديد شيئاً معيناً يسترعى انتباهه ، سرعان ما تحول عنه الى أبيه

وشعر نجدانوف بعدم الاستقرار أو الاطمئنان فى هذا الوسط ، كما شعر بذلك من قبل ليلة المسرح . فقد كان يرتدى معطفاً قديماً غير أنيق . أما وجهه ويداه فكان يغطيهما التراب والسواد من أثر الرحلة

وهو يدرى جيداً أن فالنتينا ميهايلوفنا وجهت اليه عبارة رقيقة من عبارات المجاملة ، بيد أنه لفرط ارتباكه لم يدرك ماذا كانت بالضبط . وكل ما استطاع أن يلاحظه ، هو أنها شديدة الذكاء ، حاضرة البديهة ، وأنها شديدة التعلق بزوجها . أما ابنها كوليا فلم يعجبه فيه رأسه الغارق فىالعاجين

ولما وقع نظره على كولوميتزيف قال فى نفسه :

— ياله من مخلوق مترف . . !

أما الآخرون فلم يلق اليهم باله

الحجرة الخضراء

كانت الحجرة التي أرشد الخادم نجدانوف إليها أنيقة فى جمال ، فسيحة ، ذات نوافذ واسعة مفتوحة تطل على الحديقة . والنسيم العليل يحرك الستائر البيضاء ويرفعها كأنها قلاع ثم يتركها تهبط ثانية . ورائحة الربيع الغضة تملأ جو الحجرة

وصرف نجدانوف الخادم ثم أفرغ حقيبته واغتسل وبدل ثيابه . وكانت الرحلة قد أنهكت قواه . ووجود شخص غريب طيلة اليومين اللذين استغرقتهما وما صحب ذلك من مناقشات لا طائل تحتهـا ، قد أشاع الاضطراب التام فى أعصابه ، فتجمعت فى أغوار كيانه مرارة لا هى بالسأم ولا هى بالسخط . فمشى نحو النافذة ووقف ينظر إلى الحديقة وكانت من الطراز العتيق وتحتل سفح تل

راح نجدانوف يحدق ويصغى ، وهو يحتسى جرع الهواء الرطب من بين شفتيه المفترتين ففارقه ذلك الشعور بالاعياء وتسربت إلى نفسه طمأنينة رائعة

وفى هذه الآونة كان نجدانوف موضوع مناقشة فى الطابق الأسفل . إذ كان سيباجين يخبر زوجته عن كيفية التقائه به . وماذا قال له الأمير ج عنه . وبموضوعات أحاديثهما طوال ساعات الرحلة التى بلغت يومين كاملين

— انه يا عزيزتى شاب ذكى ، حسن التربية أيضـاً . أجل إنه ثورى . ولـكن ما أهمية ذلك ؟ فالغالب على هؤلاء الناس الطموح . وأما كوليا فهو أصغر كثيراً من أن يتعرض للفساد من هذه الناحية

وكانت فالنتينا ميهايلوفنا تصغى لزوجها بشغف ، وقد تلاعبت على شفتيها ابتسامة ، فكأنه كان يروى لها دعابة فكهة . وكان يروق لها أن تخال سيدها ومولاها ، وهو هذا الرجل المعتبر الذى يحتل مكانة خطيرة ، يمكن أن يكون خبيثاً مثل فتى فى العشرين من عمره

وكان سيبياجين واقفاً أمام المرآة . فى قميص أبيض كالثلج ، وحمالة من من الحرير الأزرق ، يمشط شعره على الطريقة الانجليزية بفرشاتين . فى حين جلست فالنتينا ميخايلوفنا على أريكة تركية ضيقة وقد جعلت ساقيها من تحتها ، تخبره بأنباء البيت المختلفة ، وبأنباء مصنع الورق الذى لم يكن للأسف يسير على ما يرام كما كان منتظراً ، كما حدثته عن احتمال تغيير الطبـاخ ، وعن الـكنيسـة التى سقط طلاؤها ، وعن ماريانا وعن كولوميزيف . . .

وكانت هناك ثقة كاملة وتفاهم طيب بين الزوج والزوجة . فما من شك أنهما كانا يعيشان فى محبة ووفاق كما يقول أهل الزمن السالف

ولما أتم سيبياجين زينته طلب من زوجته أن تمد اليه يدها ، فمدت اليه كلتا يديها وراحت ترقبه بشغف وزهو وهو يقبـل الواحدة منهما بعد الاخرى

وحينما دقت الساعة الخامسة نزل نجدانوف لتناول الطعام الذى أعلن عنه بدقات طبل صينى لابرنات جرشى . ووجد المجموعة كاملة فى حجرة الطعام . ورحب به سيبياجين ثم أشار له الى مقعد بين انا زاهاروفنا وكوليا

وكانت انا زاهاروفنا عذراء عجوزاً ، وشقيقة لوالد سيبياجين . وكانت عصبية الحركات جداً ، وعصبية النظرات أيضاً . وقد أشرفت على تربية كوليا فكانت بمثابة المربية له . ولهذا اكتسى وجهها المتغضن بعلائم الاستياء عندما جلس نجدانوف بينها وبينه . أما كوليا فنظر من طرف عينيـه الى جاره الجديد . وأدرك الغلام الذكى بسرعة أن معلمه يشعر بالخجل وعدم الارتياح . حتى انه لم يكد يرفع عينيه أو يصيب من الطعام شيئاً . وسر كوليا لذلك . فقد كان يخشى أن يكون معلمه فظاً متجهماً

وفى الوقت نفسه كانت فالنتينا ميخايلوفنا ترقب نجدانوف . فقالت لنفسها :

— إنه يبدو فى مظهر الطلاب ، لم يألف المجتمعات بيد أن له وجهاً يستثير الاهتمام . ولون شعره أشبه بلون ذلك الحوارى الذى يرسمه الأساتذة الايطاليون دائماً بشعر أحمر . وما أشد نظافة يديه !

والواقع أن جميع من كانوا على المائدة كانوا يحدقون فى نجدانوف . بيد أنهم كانوا يشفقون عليه فيتركونه لنفسه فى الوقت الحاضر وشعر هو بذلك فسر له وغضب بسببه فى الوقت ذاته

وكان الحديث على المائدة دائراً فى معظمه بين سيياجين وكولوميتزيف فتحدثا عن مجلس المقاطعة ، وعن الحاكم ، وضريبة الطرق الزراعية ، وعن السماح بشراء الأرض ، وعن أصدقاء لكليهما فى موسكو وبطرسبورج ، وعن صعوبة الحصول على التعويضات للخسائر التى تسببها الماشية . بل وتحدثا أيضاً عن بسمارك ونابليون الثالث الذى كان يلقبه كولوميتزيف بالبطل

وأطلق كولوميتزيف العنان لآرائه الرجعية ، حتى انه اقترح ـ على سبيل المزاح ـ أن يحتسوا نخب « المبدأ الوحيد الذى اعترف به وهو الكرباج ! »

وقطبت فالنتينا ميهايلوفنا حاجبيها ثم قالت بالفرنسية :

ـــ إن هذه قلة ذوق متناهية !

أما سيياجين فكان على العكس يفيض فى شرح آرائه التقدمية ، ويفند حجج كولوميتزيف بكل أدب ، ولكن بشىء من الاستهانة

وفى أثناء هذه المعركة الكلامية الحادثة كان نجدانوف يتبادل النظرات مع ماريانا خلسة ، فأدرك على الفور أنه أمام فتاة جادة تعتنق مذهبه وتتسم بطابعه . فسره سروراً عظيما أن يكتشف ذلك ، وتابع المناقشة الدائرة بروح معنوية أعلى من ذى قبل فوجد فالنتينا ميهايلوفنا تؤيد زوجها بل انها كانت أشد حماسة منه فى تعبيراتها حتى إنها قالت بصراحة لضيفها :

ـــ أنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يعتنق شاب متعلم هذه الأفكار العتيقة التى لم تعد تصلح لهذا الزمن . ولكنى واثقة أنك انما تتظاهر بذلك على سبيل الجدل فقط

ثم التفتت الى نجدانوف وقالت باسمة :

ـــ وأنت يا ألكساى ديمتريتش ، أنا أعلم أنك لا تشارك سيميون بتروفتش آراءه . فقد أخبرنى زوجى بما كان بينكما من أحاديث فى أثناء الرحلة

فاحمر وجه نجدانوف وانحنى فوق طبقه وغمغم كلمات . لا لأنه كان يشعر بالخجل ، بل لأنه لم يكن متعوداً على التحدث مع مثل هذه الشخصيات اللامعة

وظلت مدام سيياجين تبتسم له ، وزوجها يهز رأسه فى رعاية . فوضع كولوميتزيف المونوكل تحت حاجبه وراح يحدق فى هذا الطالب الذى تجاسر على مخالفة رأيه . ولكن كان من الصعب أن يضايق نجدانوف بهذه الوسيلة ، بل على العكس انتصب فى جلسته وراح يبادل الموظف الأنيق تحديقاً بتحديق .

وكما شعر بغريزته أن ماريانا صديقة ، كذلك شعر أن كولوميتزيف عدو

وحاول كولوميتزيف أن يضحك ولكن الضحكة لم تخرج من فمه . لأنه شعر أيضاً أن نجدانوف عدو صلب الراس . ولم يكن يؤيده فى رأيه إلا أنا زاهاروفنا التى كانت معجبة به للغاية ، والتى زاد سخطها لذلك على الجار الغريب الذى جلس بينها وبين كوليا ففرقها عنه

وبعد الفراغ من الطعام نهضت المجموعة الى الشرفة لتتناول القهوة وأشعل سيباجين وكولوميتزيف السيجار . وعزم سيباجين على نجدانوف بواحد ، بيد أنه اعتذر ، فصاح سيباجين

— طبعاً ! لقد نسيت أنك لا تدخن إلا نوع سجائرك الخاص

وإذا بمدام سيباجين تقول فى هذه اللحظة فجأة :

— لا تضايق نفسك يا ماريانا من أجل صديقنا الجديد دخنى سيجارتك كما تشائين . فقد سمعت أن الفتيات يدخن فى أوساط التقدميين

ثم التفتت متسائلة بنظراتها نحو نجدانوف ، فأجابها بإيجاز :

— هذا صحيح

فكسرت مدام سيباجين جفنها وقالت بتحسر كاذب :

— أما أنا فلا أدخن . وأظننى متأخرة عن زمنى

فلم يجب نجدانوف . أما ماريانا فأخرجت ببطء وعناية سيجارة وصندوق ثقاب وراحت تدخن كأنما لتغيظ زوجة خالها عمداً . وأشعل نجدانوف سيجارته من ماريانا وشاركها فى التدخين

كان المساء جميلا ، فنزل كوليا مع انا زاهاروفنا الى الحديقة . وبقى الآخرون فى الشرفة يستمتعون بالنسيم . واحتدم النقاش مرة أخرى عندما هاجم كولوميتزيف الأدب الجديد . وفى هذه المرة أيضاً أظهر سيباجين منتهى التقدم والحماسة لكل ما هو حديث . وبعد ذلك نهض الجميع لتناول الشاى فى حجرة الجلوس

وبعد الفراغ من الشاى قال سيباجين لنجدانوف :

— يا ألكساى ديمتريتش . إننا هنا متعودون على لعب الورق كل مساء . بل ونلعب لعبة يحرمها القانون . . . ولا أثقل عليك بطلب اللعب معنا ولكن ربما تكرمت ماريانا فعزفت لك شيئاً على البيانو ، فأنت تحب الموسيقى

ومن غير أن ينتظر رداً ، تناول سيباجين الورق ، فجلست ماريانا الى البيانو وعزفت بغير اكتراث جملة مقطوعات لمندلسن

ولما اكتشف سيباجين أن نجدانوف بعد انتهاء الموسيقى كان يتجول فى الحجرة على غير هدى متشاغلا بالتطلع الى الصور ، رجاه ألا يجشم نفسه أى تكليف ، وأن يأوى الى حجرته إن كان يشعر بالتعب من الرحلة

— وتذكر يا عزيزى أن المبدأ السائد فى بيتنا هو الحرية

فاستقل نجدانوف ذلك وانحنى لجميع الحاضرين ثم غادر الحجرة . فاصطدم عند الباب بماريانا وهى داخلة . فأطل فى هذه اللحظة فى عينيها ، واقتنع مرة أخرى أنهما رفيقان ، وإن كانت لم تظهر أى علامة تدل على سرورها برؤياه عندئذ ، بل على العكس قطبت جبينها جداً

ولما دخل حجرته وجدها منعشة بالهواء المتجدد المعطر لأن نوافذها ظلت مفتوحة على مصراعيها طول النهار

وفى الحديقة ، أمام نافذته ، وقف بلبل يغرد بصوته العذب . وبدت على صفحة الأفق أشعة القمر الصاعد من خلال الأشجار العالية ، فانشرح صدر نجدانوف ، وأوقد شمعته ليخلع ثيابه

▭

استيقظ نجدانوف مبكراً فى ذلك اليوم . ومن غير أن ينتظر دخول الخادم عليه ليعاونه نهض من فراشه وارتدى ملابسه ثم خرج الى الحديقة . وكانت الحديقة مترامية الأطراف بديعة التنسيق . ووجد عدداً من الأجراء يمهدون الممرات التى لم تزل مبللة بالندى ، ولمح من بين الشجيرات الخضراء الناصعة ألوان للناديل الزاهية التى تغطى رؤوس الفلاحات الصغيرات . فسار متمهلا الى شاطىء البحيرة ، وكان ضباب الصباح قد انقشع فلم يترك إلا بعض تعاريج من شاطئها فى طى الخفاء

وكانت الشمس لم تزل بعيدة عن العلو فى كبد السماء ، فهى ترسل من الأفق الشرقى أشعة وردية تغمر كل شىء فى مسطح واسع ، حتى هؤلاء النجارين الذين كانوا مشغولين باللمسات الأخيرة من قارب جديد يعدونه للنزهة فى تلك

البحيرة ، نزهة رب الدار وزوجته . كانوا يعملون فى صمت إلا لضرورة العمل القصوى ، وكأنهم يشعرون بجلال سكون الصباح ولا يجدون الجرأة على تكديره

وفجأة لمح نجدانوف فى الجانب الآخر من الممر صورة مجسمة للنظافة والأناقة ، ممثلين أتم تمثيل فى شخصية سيبياجين نفسها ، الذى بادره قائلا :

— آه ! أراك من طيور البكور . إننا نتناول الشاى فى الساعة الثامنة فى قاعة المائدة ، ونتناول الافطار عادة فى الثانية عشرة . وأود أن تعطى كوليا درسه الأول فى النحو الروسى فى الساعة العاشرة . أما درس التاريخ ففى الساعة الثانية بعد الظهر

فأحنى نجدانوف رأسه ، واستأذن منه سيبياجين منصرفاً على الطريقة الفرنسية ، رافعاً يده بسرعة جملة مرات الى شفتيه وأنفه ، ثم انطلق يصفر بفمه ويطوح عصاه فى نشاط ، لا كما يفعل كبار الموظفين فى الدولة ، بل كما يفعل أهل المرح من ثراة الريف ...

وفى الساعة العاشرة تماماً قام نجدانوف باعطاء درسه الأول لكوليا ، بحضور فالنتينا ميهايلوفنا التى استأذنته فى ذلك ثم جلست صامتة جداً طول الوقت . وأثبت كوليا أنه غلام ذكى ، بعد أن انقضت اللحظات التى لابد منها فى البداية متسمة بالاستيحاش والتردد والتوجس ، فسار الدرس على خيرما يرام ، ولاشك أن فالنتينا ميهايلوفنا رضيت كل الرضى عن نجدانوف ، فقد تحدثت إليه جملة مرات بلهجة ودية . وحاول هو أن يتباعد قليلا ، ولكنه لم يستطع ...

وحضرت فالنتينا ميهايلوفنا الدرس الثانى أيضاً ، وكان هذه المرة فى التاريخ الروسى . وافتر ثغرها عن ابتسامة وهى تصرح فى بدايته أنها تحتاج شخصياً الى تثقيف فى هــذا الموضوع قدر حاجة كوليا الى ذلك . ثم جلست ساكنة فى هذا الدرس كسكونها فى الدرس الأول تماماً

وفى الفترة التى انقضت بين الساعة الثانية والساعة الخامسة مكث نجدانوف فى حجرته الخاصة يكتب الخطابات الى أصدقائه فى بطرسبورج . وكانت أعصابه المرهقة من الرحلة قد هدأت شيئاً ما ، ففارقه ما كان يشعر به من سأم وقنوط . ولكن على مائدة العشاء وجد أعصابه تتوتر من جديد . لا لأن كولوميتزيف أثارها ـ فهذا الشخص لم يكن موجوداً تلك الليلة ـ بل لأن رب الدار وربته

أفرطا فى اظهار الحفاوة به والتلطف معه ، مما أشعره أنه مسكين يتصدقان عليه بالعطف

وزادت الحالة سوءاً تلك العانس العجوز أنا زاهاروفنا التى كانت واضحة العداء له والنفور منه . وأما كوليا الذى زالت الرهبة من نفسه فكان يرفسه من تحت المائدة . ولما تحول الى ماريانا بعينيه وجدها على حالها من الجد

وأثار سيبياجين موضوع مصنع الورق ومديره الألمانى الذى كان يتقاضى منه مرتباً كبيراً ولا يجنى منه أى فائدة . ثم شرع يسب الألمان عموماً، وذكر بالخير مهندساً روسياً اسمه سولومين ، فقد سمع أنه نجح جداً فى إدارة مصنع لتاجر من جيرانه . وأبدى شغفاً كبيراً بمقابلة هذا الرجل

وحضر كولوميتزيف أثناء السهرة ، فمزرعته لاتبعد سوى عشرة أميال عن قرية سيبياجين . وبعد قليل جاء زائر آخر ليست فى فمه سن واحدة ، بيد أنه حسن الهندام جداً . كما حضر طبيب المنطقة ، الذى يجمع بين سوء العلم بالطب والادعاء الكاذب فى الأدب ، فلما سمعه نجدانوف يفضل شويمراً غنا على الشاعر العظيم بوشكين ، انسحب الى حجرته حيث ظل يقرأ ويكتب الى منتصف الليل

وكان اليوم التالى هو يوم عيد القديس حامى كوليا

ومع أن الكنيسة لم تكن تبعد عن البيت سوى ربع ميل ، إلا أن أهل البيت جميعاً ومعهم الخدم ذهبوا لحضور صلاة القداس فى ثلاث عربات مطهمة مكشوفة ووراء كل عربة حاجبان بكسوة الأعياد المزركشة

وكان قد انقضى زمن طويل لم يدخل فيه نجدانوف كنيسة ، فوقف فى ركن بين نساء الفلاحين اللواتى طفقن يرمقنه بنظرات جانبية ما بين كل ركعة وأخرى ، أو ما بين كل ركعة وكل مسحة بأيديهن على أنوف أطفالهن . أما الفتيات والغلمان فى القمصان المطرزة فكانوا يحدقون النظر فيه بصراحة ، فيحدق فيهم كذلك ... وبعد انتهاء القداس الطويل ، انتقل رجال الكنيسة جميعاً بدعوة من سيبياجين الى البيت ، حيث قاموا بمراسم أخرى معقدة اضافية ، رشوا فى ختامها حجرات البيت بالماء المقدس . ثم جلس الجميع الى مائدة إفطار حافلة . وإكراماً لخاطر القساوسة جلس رب الدار وربته الى المائدة قبل الموعد المألوف . بل ان سيبياجين جشم نفسه رواية بعض النكات والفكاهات ، غير مكترث بالوسام الأحمر المهيب الذى يرتديه

وكان كوليا فى معطفه الجديد ذى الأزرار الذهبية هو بطل ذلك اليوم. قدمت اليه الهدايا والتهانى . وقبل الخدم يده عند الباب الأمامى وعند الباب الخلفى . كما حضر العمال من المصنع ، والفلاحون والفلاحات من الحقول ليقوموا أيضاً بعملية تقبيل يده هذه . ثم وزعت على هؤلاء الأتباع صحاف الطعام وزجاجات الفودكا تذكاراً لأيام رق الأرض السالفة

وعلى مائدة العشاء أمر سيبياجين باحضار الشمبانيا التى فتحت بضجتها المعتادة . ثم أصر سيبياجين قبل احتساء نخب ابنه الوحيد أن يلقى خطبة مناسبة للمقام . وكيف يتوقع من ابنه نيقولاى (ولم يستعمل فى هذه المرة اسم التدليل كوليا) أن يقوم بواجباته ، نحو أسرته أولا ، ونحو طبقته الاجتماعية ثانياً ، ونحو الشعب ثالثاً ، ونحو الحكومة رابعاً ...

وبعد أن فرغ من هذه الخطبة الحماسية تقدم كوليا وكأسه فى يده فشكر والده ، ثم تلقى قبلات الآخرين

وعندئذ وجد نجدانوف نفسه يتبادل النظرات مع ماريانا . ولم يعد هناك شك أن شعورهما كان متماثلا إزاء هذا المنظر . ولكنهما لم يتفاهما بالألفاظ

وعلى كل حال ، كان نجدانوف مسروراً بهذا الاستعراض . ووجد فيه تسلية . كما بدت له فالنتينا ميخايلوفنا امرأة ذكية تدرى ما تفعل ، وتقدر ذكاءه. وقد أطربه أن يكون هذا هو شعور السيدة الحسناء من جهته

وهكذا انقضى اليوم الثانى بغير عمل ، ثم استؤنفت الدروس فى اليوم الثالث على الوتيرة المعتادة . وانقضى أسبوع على هذا النحو

ولعل أحسن تعبير عن خواطر نجدانوف فى تلك الفترة هو ما جاء فى فقرات من خطاب كتبه الى زميل قديم من زملاء المدرسة ، هو أفضل أصدقائه وأعزهم عنده ، واسمه سيلين

وسيلين هذا لا يسكن بطرسبورج ، بل مكانا فى أعماق الريف مع قريب له . ويعتمد فى حياته كل الاعتماد على ذلك القريب ، بحيث يصعب عليه جداً أن يفكر فى الرحيل عن تلك البقعة . فهو ضعيف الصحة جداً ، محدود المواهب جداً ، خجول الى أقصى حد ، ولكنه يتمتع بفطرة نقية للغاية . لم يكن له اهتمام بالسياسة ، بيد انه كان يقرأ كل مايقع له . ويعزف على المزمار فى أوقات السأم ، أما الفتيات فيحذرهن ويفزع منهن

وكان سيلين شغوفا جداً بنجدانوف . ونجدانوف لا يكشف طوايا نفسه بصراحة لأحد سوى فلاديمير سيلين . فحين يكتب اليه يشعر انه يبوح بمكنون نفسه لصديق فى عالم آخر ، أو لذات ضميره

« ان رب البيت وربته مجاملان جداً . ومتحرران فى أفكارهما . والسيد واسع الاطلاع والثقافة ، تنتابه بين الحين والحين نوبة من البلاغة والفصاحة. وأما السيدة فجميلة جمال الصور ، وهى حاضرة البديهة جداً ، دقيقة الملاحظة ، وناعمة جداً ! انها لفرط غضارتها ونعومتها يخيل الى انه لا وجود للعظام فى بدنها ! كم أخافها ! وأنت أدرى الناس بمقدار صلاحيتى لصحبة النساء ...

« هناك جيران يزورون البيت . ولكنهم لا أهمية لهم . وفى البيت سيدة عجوز لا أستريح اليها ... ولكن هناك شابة مينة تثير اهتمامى . ولكنى لا أعلم، ولعل الله وحده يعلم ، ان كانت فى البيت بصفتها من ذوى القربى أو مرافقة للسيدة بالأجر ! انى لم أبادلها أكثر من كلمتين . ولكنى أشعر شعوراً عميقا اننا طيران من فصيلة واحدة »

وتلت ذلك تفاصيل الشكل العام لماريانا وعاداتها ، وأتبع ذلك بقوله :

« ليس عندى أدنى شك فى انها غير سعيدة ، وفى انها متكبرة طموح متحفظة . ولكن التعاسة هى الطابع الغالب عليها . وقد فشلت حتى الآن فى الكشف عن أسباب تلك التعاسة . ومن الواضح أيضا انها ذات طبيعة مستقيمة. ولكنى لم أعرف بعد هل هذه الطبيعة المستقيمة طيبة كذلك أم لا

« انى كما تعلم لا أعرف إلا القليل جداً عن عالم النساء . وقد لاحظت أن ربة الدار لا تحبها . واحساسى الخاص ان هذا الشعور متبادل . ولكن من الصعوبة بمكان أن أقول من منهما على حق ومن منهما المخطئة . فربة الدار مهذبة جداً فى حديثها معها . أما الأخرى فتقطب جبينها بعصبية حين تتحدث الى السيدة . انها تشبهنى فى فرديتها وانعزالها ، وفى سهولة التكدر ، وإن كان أسلوبها فى ذلك قد يختلف عن أسلوبى . وسأكتب اليك حين أصل إلى حل كل هذه الألغاز أو بعضها

« انها لا تكاد تكلمنى كما قلت لك من قبل . ولكن فى المرات القليلة التى

خاطبتنى فيها (وكان هـذا على الدوام بصورة مباغتة) كنت أسمع رنة صدق واخلاص خشنة فى صوتها يميل لها قلبى

« وبهذه المناسبة ، ألم يفكر قريبك العجوز بعد فى الانتقال الى العالم الآخر؟ أرجو أن يفعل قريبا »



فى الغابة

بلغ شهر مايو نصفه الثانى ، وأخذت أيام الصيف الحارة تتوالى
وبعد انتهاء درس التاريخ ذات يوم خرج نجدانوف يتجول فى الحديقة ، ومن هناك قادته قدماه الى غابة تحف بالحديقة من أحد جانبيها . وكان هذا الجزء من الغابة قد قطعه بعض التجار منذ خمس عشرة سنة بيد أن تلك المساحة سرعان ما غطتها شجيرات نامية

وبعد أن قضى فى تجواله نحو نصف ساعة ، جلس نجدانوف فوق جذع شجرة مقطوع تحف به أكوام من القطع الخشبية الصغيرة التى تساقطت تحت ضربات الفأس التى أسقطت الجذع قليلا قليلا

ولم يكن يفكر فى شىء معين ، بل ترك العنان لخواطره وأسلم إحساساته للربيع الذى يمتزج الاحساس به دائماً فى قلوب الشيب والشباب على السواء بشىء من الحزن . بيد أنه حزن متوفز عند الشباب ، وأسى مستقر عند الشيوخ

وتنبه نجدانوف فجأة الى اقتراب خطوات وخيل اليه أنها ليست خطوات شخص واحد كما أنها ليست خطوات أحذية الفلاحين الثقيلة ، ولا خطوات فلاحة حافية . وإنما هى أشبه بخطوات شخصين يقتربان فى تمهل بايقاع منتظم . ثم سمع وسوسة ثوب امرأة . وسمع فجأة صوت رجل عميقاً يقول :

— هل هذه كلمتك الأخيرة ؟

— نعم هى الأولى والأخيرة !

وكان الصوت صوت امرأة مألوفاً عنده وبعد برهة ظهرت من بين الأشجار وعلى بعد فى بعض منحنيات الطريق ماريانا ، وفى صحبتها رجل أسود العينين لم يكن نجدانوف قد رآه من قبل

ووقف الاثنان جامدين كأنما سمرا فى الأرض عندما وقع بصرهما عليه . وأخذ هو من المفاجأة حتى انه لم يتحرك للنهوض من حيث كان جالساً فوق الجذع

واحمر وجه ماريانا حتى منابت شعرها ، ثم ابتسمت على الفور ابتسامة استخفاف . وكان من الصعب أن يتكهن إن كانت هذه الابتسامة راجعة الى خجلها من احمرار وجهها ، أو موجهة الى نجدانوف . وأما صاحبها فظهر الاضطراب فى عينيه واضحاً ، وتبادل النظرات مع ماريانا . ثم أدارا له ظهريهما من غير أن ينطقا بكلمة ، وانصرفا فى خطوتهما البطيئة ، ونجدانوف يتبعهما بنظرة دهشة

وبعد نصف ساعة عاد نجدانوف الى حجرته . ولما سمع الدقات التى تؤذن بالعشاء نزل الى حجرة الجلوس ، فاذا به يجد هذا الغريب الأسود العينين الذى رآه فى الغابة موجوداً هناك . وقام سيبياجين بتقديم نجدانوف اليه باعتباره صهره ، شقيق فالنتينا ميخايلوفنا واسمهُ سرجاى ميخايلوفتش ماركيلوف . ثم استطرد سيبياجين على طريقته الودية الباسمة :

— أرجو أن تتوثق المعرفة بينكما وتغدوا صديقين

فانحنى ماركيلوف صامتاً ورد عليه نجدانوف بنفس الطريقة فهز سيبياجين كتفيه وألقى برأسه الى الوراء قليلا وابتعد عنهما ، وكأنه يقول :

— لقد جمعت بينكما ، وسيان عندى بعد ذلك أن تتصادقا أو تتعاديا !

واقتربت فالنتينا ميخايلوفنا منهما ، وأعادت التعريف بينهما ، ثم التفتت نحو شقيقها بمحياها المشرق ، وبتدليل يظهر أنها كانت قادرة على إبرازه عند الطلب فى عينيها الساحرتين :

— أرى يا عزيزى سيرج أنك كدت تنسانا ... وعلى قربك منا لم تحضر حتى عيد عزيزنا كوليا . فهل أنت مشغول حقاً إلى هذا الحد ؟

وفى هذه اللحظة بالذات أعلن قدوم كولوميتزيف . فأسرعت ربة الدار الى استقباله ، وبعد لحظات أعلن الخادم بصوت منغم أن المائدة حاضرة

وطول مدة العشاء لم يستطع نجدانوف أن يحول عينيه عن ماريانا وماركيلوف . وكانا جالسين جنباً الى جنب وقد غضا طرفيهما وزما ثغريهما . وعجب نجدانوف كيف يمكن أن يكون ماركيلوف هذا شقيق مدام سيبياجين .

فما أقل الشبه بينهما . وكل ما يجمع بينهما هو هذه السمرة . بيد أن سمرة فالنتينا ميهايلوفنا كانت تضفي على وجهها وذراعيها وكتفيها عنصراً من عناصر الفتنة . أما سمرة شقيقها فكانت قاتمة بدرجة ينفر منها الذوق الروسي

وكان ماركيلوف متموج الشعر ، معقوف الأنف نوعا ، غليظ الشفتين ، غائر الخدين ، ضيق الصدر ، قوي اليدين . بل انه كان جاف العود في قوة عضلية وحيوية . وكان يتحدث بصوت أجش معدني أما النظرات الناعسة في عينيه ، والوجوم الذي يرتسم على محياه ، فتدل على مزاج صفراوي . ولم يصب من الطعام إلا قليلا . إذ كان يسلي نفسه بعمل كرات من لباب الخبز . وبين الحين والحين كان يثبت عينيه في كولوميتزيف الثرثار

وكان كولوميتزيف قد عاد لتوه من المدينة ، حيث حظي بلقاء الحاكم بخصوص موضوع لا يسر كولوميتزيف كثيراً ، ولهذا جر عليه ذيل الصمت ، بيد أنه أفاض الحديث في كل موضوع آخر . وحمل عليه سيباجين عندما رآه يتطرف في آرائه الرجعية وإن كان ذلك لم يمنعه من القهقهة للنوادر التي رواها

ولم يكن ماركيلوف في الواقع يعير كلمات كولوميتزيف انتباهاً خاصاً ولكنه نظر في تساؤل ناحية نجدانوف مرة أو مرتين . ثم ضرب باصبعه إحدى كرات اللباب فأخطأت بمسافة قصيرة أنف المتحدث الثرثار

وسيباجين توخى من جانبه أن يترك صهره وشأنه . وكذلك فالنتينا ميهايلوفنا لم تتحدث اليه . فبات من الواضح أن الزوجين يعتبران ماركيلوف شخصاً شاذاً لا ينبغي الاقتراب منه أو إثارته

وبعد انتهاء العشاء توجه ماركيلوف الى قاعة البلياردو ليدخن غليونه . أما نجدانوف فانسحب الى حجرته

وفي الدهليز التقى بماريانا ، وأراد أن يتسلل من جوارها ، وإذا بها توقفه بحركة سريعة من يدها وتقول له بصوت مضطرب قليلا :

— يامستر نجدانوف ينبغي ألا يهمني مطلقاً ما قد تظنه بي . ولكني أجد . . .

ولبثت برهة تبحث عن الكلمة المناسبة إلى أن وجدتها :

— أجد من الضروري أن أخبرك أنك حينما وجدتني في الغابة اليوم مع

المستر ماركيلوف ، لا بد أنك ظننتنا وقد رأيت ارتباكنا ، أننا كنا هناك بناء على اتفاق أو موعد سابق

— الحقيقة أنني استغربت قليلا . . .

فقاطعته ماريانا قائلة :

— إن مستر ماركيلوف طلب فى هذه المقابلة يدى . . . وقد رفضته . وهذا كل ما أردت أن أقوله لك . طابت ليلتك . وظن بى ماشئت !

ودارت على عقبها ثم أسرعت مبتعدة !

ودخل نجدانوف حجرته ثم جلس بجانب النافذة يفكر :

— يالها من فتاة عجيبة ! ترى لماذا هذا الايضاح الذى لم يطلبه منها أحد ؟ هل هى رغبتها فى الغرابة ، أو التصنع ، أو الكبرياء ؟ . إنها الكبرياء ولا شك . فهى لاتستطيع أن تحتمل مجرد الشبهة فى أن يسىء أحد بها الظن

وفى الوقت نفسه كان نجدانوف هو موضوع الحديث فى الشرفة السفلى . وقد سمع صوت كولوميتزيف واضحاً وهو يقول :

— لقد تعلمت وأنا فى خدمة البوليس السرى كيف أعرف بغريزتى الثوريين . ولا شك عندى أن معلمك الجديد ثورى . ألم تلاحظ أنه لا يبدأ أحداً بالانحناء ؟

فأجابته مدام سيبياجين قائلة :

— ولماذا يبدأ بالانحناء ؟ إن هذا هو ما يحببنى فيه

فصاح كولوميتزيف بحدة قائلا :

— إننى ضيف فى البيت الذى يخدم فيه . نعم يخدم فيه بأجر كأى خادم . فأنا إذن أعلى منه مقاماً . . . ولهذا ينبغى أن ينحنى لى أولا

فقال سيبياجين بحزم ولكن فى هدوء :

— ياعزيزى كولوميتزيف . إنى أدفع له أجر خدماته وعمله . ولكننى لا أدفع له ثمن حريته . فهو حر كأى إنسان

— إنه لا يحس باللجام ! وجميع الثوريين على هذه الشاكلة !

وأوشك نجدانوف أن يصرخ من النافذة ليسبه ، لولا أن باب الحجرة

انفتح فى هذه اللحظة . ولدهشته الشديدة دخل عليه ماركيلوف
.

نهض نجدانوف لاستقباله ، أما ماركيلوف فاتجه اليه مباشرة ومن غير تحية سأله : « ألست ألكساى ديمتريش ، الطالب بجامعة بطرسبورج ؟ » فأجابه نجدانوف قائلا :

— بلى . إننى هو . . .

فأخرج ماركيلوف خطاباً غير مغلق من جيبه الجانبى ، وقال له بصوت تعمد أن يخفضه خفضاً ذا مغزى :

— فى هذه الحالة ، تفضل بقراءة هـذه الرسالة فهى من فاسيلى نيقولايفتش

فبسط نجدانوف الرسالة وقرأها . وكانت نشرة شبه رسمية تتضمن تقديم سرجاى ماركيلوف باعتباره واحداً « منا » جديراً بالثقة المطلقة . وأعقبت ذلك توجيهات بشأن الضرورة الملحة للعمل الموحد فى الدعاية لمبادئهم المعروفة . وكانت هذه النشرة موجهة الى نجدانوف باعتباره شخصاً جديراً بالاعتماد عليه

ولما فرغ نجدانوف من التلاوة مد يده الى ماركيلوف وقدم اليه مقعداً ، ثم جلس هو أيضاً ومن غير أن ينطق ماركيلوف بكلمة أخذ فى إشعال سيجارته ، فحذا نجدانوف حذوه . ثم سأله ماركيلوف أخيراً :

— هل دبرت أمر الاتصال بالفلاحين هنا ؟

— كلا . فالوقت لم يتسع لى بعد

— وكم مضى عليك من الوقت هنا ؟

— زهاء أسبوعين . . !

— هل العمل لديك كثير ؟

— ليس كثيراً جداً . . .

فسعل ماركيلوف سعلة حادة ثم قال :

— إن الناس هنا على درجة عظيمة من الغباء جهلاء غاية الجهـل . ولابد من تنويرهم وهم فقراء جـداً ، بيد أنه من غير الممكن إفهامهم سبب فاقتهم

فعلق نجدانوف على ذلك بقوله :

— إن عتقاء زوج أختك القدامى لا يبدو عليهم فيما أرى أنهم فقراء

— إن زوج أختي أستاذ بارع فى التمويه على الناس . وهو يعرف جيداً كيف يصل الى أهدافه . ولئن كان فلاحوه لايعيشون فى ضنك حقاً ، إلا أنه يملك مصنعاً وفى هذا المصنع عمال ينبغى أن تتجه اليهم عنايتنا وأقل حركة يؤتى بها هناك كفيلة أن تثير تلك العمال هل أتيت معك بشىء من الكتب ؟

— أجل . بقليل منها . . .

— سآتيك بمزيد منها إذن . ولكن كيف لا يكون معك إلا القليل ؟

فلم يجبه نجدانوف . فسكت ماركيلوف وشرع يرسل أنفاس الدخان من منخريه . ثم هتف بعد حين فجأة :

— يالهذا الكولوميتزيف من خنزير . لقد أوشكت ونحن على المائدة أن أهجم عليه فأهشم وجهه عبرة لسواه . لولا أن أمامنا الآن ما هو أجدى وأهم . ولا وقت لدينا نضيعه مع بلهاء يتفوهون بهراء . لقد حان الوقت كى نمنعهم من فعل سخيف ، أما الأقوال فليست بذات بال

فهز نجدانوف رأسه واستأنف ماركيلوف التدخين . ثم استطرد :

— ليس بين الخدم هنا سوى شخص واحد يرجى منه خير . إنه ليس خادمك ايفان فلا فطنة لديه أكثر من فطنة السمك وإنما أعنى الساقى كيريل (وهذا الساقى معروف بإدمانه للشراب) ، أجل إنه سكير عربيد . ولكن الظرف لا يسمح لنا بالتزمت فى الاختيار . ثم ما رأيك فى أختى ؟

وألقى ماركيلوف هذا السؤال الأخير فجأة وهو يثبت عينيه الصفرتين فى عينى نجدانوف ، وأردف قائلا :

— إنها أكثر من زوجها اقتداراً على التمويه . فما رأيك أنت فيها ؟

— رأيى أنها سيدة عطوف جداً ودمثة . فضلا عن هذا فهى بارعة الجمال

— إنى شديد الاعجاب بما تتميزون به أيها السادة من أهل بطرسبورج بالكياسة فى التعبير عن أنفسكم . ثم ما رأيك فى . . .

وتجهم وجهه فجأة فلم يتمم عبارته . وبعد أن سكت لحظة قال :

— أرى أننا ينبغى أن نتحدث حديثاً طويلا . وهذا غير ممكن هنا . فمن

يدرى ؟ ربما كان هناك من يتسمع عند الباب . وعندى اقتراح . فاليوم يوم السبت . وسوف لا تعطى ابن أختى درسه غداً . أليس كذلك ؟

— سأعطيه درس الشعر فى الثالثة ...

— ليس هذا مهماً . إذ يمكنك أن تأتى معى إلى بيتى الآن . وقريتى لا تبعد من هنـا أكثر من عشرة أميال . وجياد عربتى قوية توصلنا فى لمح البصر . وهناك تقضى الليلة ومدة الصباح ، ثم أعود بك الى هنا قبل الثالثة . فهل تأتى ؟

— بكل سرور ...!

وكان شعور نجدانوف منذ حضر ماركيلوف شعوراً جارفاً غامضاً . فهذه المسارة والمكاشفة كانت تضايقه . ومع ذلك كان يشعر من نفسه بجاذب إليه . وكان يحس أن الرجل الماثل أمامه ذو طبيعة خالية من الاصطناع تتميز بالأمانة والقوة . فضلا عن أن التقاءه الغريب به فى الغابة صباحاً ، والتفسير الذى أدلت به ماريانا على غير انتظار ، كل ذلك ...

وقطع عليه حبل أفكاره صوت ماركيلوف يقول له :

— اتفقنا . تستطيع أن تستعد ريثما آمر بالعربة أن تخرج من الاصطبل. وآمل أنك لا تكون بحاجة للاستئذان من رب البيت وربته

— بل لابد أن أخبرهما . فلا أظن الحكمة تسمح بالتغيب من غير اخطار

— اذن أخبرهما أنا . فهما مستغرقان الآن فى لعب الورق فلن يفكرا فى موضوع حضورك أو غيابك

وانسحب ماركيلوف . وبعد ساعة واحدة كان نجدانوف جالساً بجواره فوق المقعد الجلدى الوثير فى عربته المتسقة المريحة. وكان الحوذى الضئيل يصفر بفمه طول الوقت صفيراً مستملحاً أشبه بصفير العصافير وهو يسوق أمامه الجياد الثلاثة فتسبق الريح على ذلك الطريق المستوى الناعم

وكانت قرية ماركيلوف الصغيرة تدعى بورسيونكوف . وكل مساحتها نحو مائتى فدان تدر عليه دخلا سنوياً مقداره سبعمائة روبل . وتبعد عن حاضرة الاقليم بثلاثة أميال . ولابد للوصول إليها من المرور بتلك البلدة

وكان مرورهما بشوارع البلدة الاقليمية بما فيها من بيوت قبيحة الشكل

يعيش فيها الفقراء ، ومن حوانيت حقيرة للخمر يرتفع منها صياح المدمنين العربدين ، موضوعاً لتعليقات شق من الرفيقين . إذ قال ماركيلوف :

— ان الشراب سيكون المعول الذى يهدم الروسيا !

وسمعه الحوذى فقال من غير أن يلتفت :

— انهم يشربون ليغرقوا أحزانهم يا سرجاى ميهايلوفتش !

▭

ويحسن بنا الآن أن نقول شيئاً عن ماركيلوف

انه كان يكبر شقيقته مدام سيياجينا بست سنوات . وقد تعلم فى مدرسة المدفعية تخرج منها برتبة الصول . ولما رقى الى رتبة الملازم استقال بسبب مشاحنة حدثت بينه وبين القائد الألمانى . ومنذ هذه اللحظة وهو يكره الألمان عموماً ، والروس الألمان على وجه الخصوص

ودب الخلاف بينه وبين والده بسبب استقالته . فلم يره بعد ذلك الى قبيل وفاته مباشرة . فلما ورث هذه الضيعة الصغيرة استقر فيها

وفى بطرسبرج كان كثيراً ما يتصل بشبان نابهين من ذوى الآراء التقدمية، كان يعجب بهم الاعجاب كله . وانتهى الأمر أن اجتذبوه الى مذهبهم فى التفكير

ولم يكن ماركيلوف قد قرأ إلا قدراً يسيراً ، وهـذا القدر اليسير يتصل كله أو معظمه بالموضوعات التى تعنيه مباشرة . وكان فى معيشته العادية يحافظ على عادات العسكرية . فمعيشته أشبه بمعيشة الاسبرطيين والرهبان

ومنذ بضع سنوات وقع فى غرام فتاة نبذته بغير مبالاة لتتزوج ضابطاً ، كان هو الآخر من عنصر ألمانى !

وحاول أن يكتب سلسلة مقالات فى أوجه نقص مدفعيتنا ، ولـكن كانت تعوزه موهبة البيان والتبيين . فلم يتم مقالا واحداً، بالرغم من تسويده صفحات كثيرة من الورق الرمادى بخطه غير المنتظم

أما خلقه فكان من النوع الذى يتصف بالعناد ، لا يخاف أحداً ولا يغفر ولا ينسى . ويشعر فى كل شىء باهانة توجه إليه والى جميع المظلومين . وعقله الضيق يدور به دائماً فى دائرة واحدة مقفلة هى السخط على الرجعيين . أما ما يتجاوز نطاق إدراكه فهو بالنسبة له شىء معدوم لا يمكن أن يكون له وجود

ولهذا كانت معاملته لـكل من يصفهم بالرجعيةمعاملة شاذةفظةمهما ارتفعت أقدارهم الاجتماعية . أما مع سواد الشعب فهو على سجيته ، بحيث يعامل الفلاح وكأنه أخ له

وكانت إدارته لضيعته لا بأس بها . وسبب ذلك أن ما حشده فى رأسه من آراء مهوشة عن الاشتراكية ، لم تكن له قدرة على تنفيذه أكثر من قدرته على إتمام مقالاته فى المدفعية

وهو على الجملة فتى طيب القلب محدود الذكاء شديد التعصب والاندفاع . يبدو فى لحظات هياجه وحشاً ضارياً لا يرحم . وفى لحظات حماسته شهيداً يستهين بالتضحية بغير تردد ، وبغير نظر الى جزاء

▭

وأخيراً تراءت للعربة أشجار من ورائها بيت ريفى صغير . فى واجهته ثلاث نوافذ مضيئة. أما البوابة المفتوحة الواسعة فكأنها لم تعرف الاغلاق يوماً. وفى الرحبة الملحقة بالدار حصانان من أحصنةالعمل فى الحقل ، والى جوارهما عربة نقل عالية . ثم برز جروان أيضان أخذا ينبحان نباحاً عالياً . وظهرت أشباح تغدو وتروح فىالبيت . فوضع ماركيلوف يده على ركبة نجدانوف وقال:

— ها نحن قد وصلنا الى البيت . وستجد هنا ضيوفاً تعرفهم أنت جيداً، بيد أنك لم تكن تتوقع أن تلقاهم هنا . تفضل بالدخول



مناقشة حادة

لم يكن الزائران غير صديقيه القديمين ماشورينا واسترودوموف وكانا جالسين فى حجرة الجلوس المتواضعة الأثاث فى بيت ماركيلوف ، يدخنان السجائر ويحتسيان البيرة فى ضوء مصباح البترول

ولم يظهر عليهما أى أثر للدهشة حين دخل نجدانوف ، لسابق علمهما أن ماركيلوف كان ينوى إحضاره معه حين يعود من بيت أخته . أما نجدانوف نفسه فكانت دهشته عظيمة حين رآهما

لم يزد استرودوموف حين دخوله على أن قال :

— طاب مساؤك ! . .

فى حين اشتدت حمرة وجه ماشورينا وبسطت اليه يدها فى صمت .

وشرع ماركيلوف يشرح له كيف أن حضورهما من بطرسبرج كان منذ نحو أسبوع ، وأن استرودوموف يزمع أن يقضى فى الريف مدة من الزمن لأغراض تتعلق بالدعاية . أما ماشورينا فسوف تتوجه الى بلدة (ك .) لتقابل شخصاً معيناً لأسباب تتعلق بالقضية كذلك . . .

وانتقل ماركيلوف من هذا الى الحديث عن القضية عموماً ، وكيف أنه قد حان الوقت للقيام بعمل جدى له أثر واقعى واشتدت حرارة كلماته واحتد جداً ، مع أن أحداً لم يفكر فى معارضته أو نقض آرائه بالقول أو بالاشارة . . .

كان منظره غريباً حقاً وهو يعض شفته ويتدفق بصوت أجش لاعناً تلك الفظائع التى ترتكب فى الوقت الحاضر ، ومؤكداً لسامعيه الثلاثة أن الظروف أمست مهيأة للقيام بالعمل بعد طول التمهيد والكلام ، فلا حق لأحد أن يتقاعد الآن إلا إذا كان جباناً رعديداً . . . وأنه لابد من العنف بالرغم

من « نضوج » الحالة ، كما لا يستغنى الخراج عن شفرة الجراح مهما كان ذلك الخراج ناضجاً . . .

وكان هذا التشبيه قديماً مطروقاً ، ولـكنه شخصياً لم يكن قد قرأه إلا فى الفترة الأخيرة ، لهذا يسره أن يستخدمه كلما سنحت المناسـبة ، وإن لم تسنح من تلقاء نفسها خلقها خلقاً !

ويبدو أن فقدانه كل أمل فى أن تحبه ماريانا جعله لا يبالى بشىء يحدث له ، فـكل همه موجه الى العمل ، ليجد فيه مسلاة ومتنفساً لغرامه الفاشل وهذا هو سر حدته وغضبه الذى يبدو بغير داع

وأكد بعد ذلك لسامعيه أنه يعرف معرفة وثيقة فلاحى هذه الجهة ، كما يعرف عمال الورش والمصانع فيها . وأن من بين الفريقين نفر من الناس يصلحون جداً أن يعتمـد عليهم فى الحركات وضرب مثلا بشخص اسمه « ارميا » قال عنه إنه على استعداد أن يلقى بنفسه فى النار عند أول إشارة تصدر اليه !

وكان يشير بيديه القويتين المشعرتين وهو يتحدث ، ويضرب بيمنـاه المائدة ، فى حين يطوح بيسراه فى حركة خطابية ، فـكانت تلك الاشارات ، بالاضافة الى صوته الأجش ، وعينيه المتألقتين بالحماسة ، سبباً فى التأثير على سامعيه تأثيراً كبيراً . . .

ولئن ظل ماركيلوف صامتاً طول الرحلة مع نجدانوف فى عزبته ، فقد انفجر الآن بسخطه المـكتوم ، فنفعه ذلك فى تقوية حجته ، بحيث صارت ماشورينا واسترودوموف يومئان بين لحظة وأخرى بالتأييد لكل ما يقول

أما نجدانوف فاستولى عليه شعور غريب ، وحاول فى البداية أن يبدى بعض الاعتراض ، مبيناً خطر التهور فى العمل قبل الاستعداد التام وتهيئة الجو ، ضارباً المثل بعمليات سابقة قضى ذلك التهور عليها فانقلبت وبالا . . .
ولما لم يترك له ماركيلوف الفرصـة تجمعت تلك التوترات فى أعصابه ، حتى أحس بها مشدودة ذات رنين فى دماغه وعينيه وأذنيه . وأخيراً وجد نفسه ينفجر بالكلام فجأة ، على غرار ماركيلوف فى انطلاقه واندفاعه وحدته . . .

ومن الصعب أن نتكهن بالبواعث التى دفعته الى هذه الحماسة ، أهو الندم على خموله الطويل فى المدة الأخيرة ؟ أم هو السخط على حياته وحياة الناس

عموماً ؟ أم هى الرغبة فى الظهور بين أصدقائه بمظهر يسترعى إعجابهم ؟ أم ترى كان لكلمات ماركيلوف تأثير شديد فى نفسه حقاً ، فألهبت دماءه ؟

وظل الحديث مشتجراً بين الأربعة الى مطلع الفجر ولم ينهض استرودوموف أو ماشورينا من مقعديهما طول الليل أما ماركيلوف ونجدانوف فظلا واقفين على قدميهما لا يستطيعان الجلوس أو لا يفكران فيه لانشغالهما بنيران الحماسة المتقدة فيهما وكأنما وقفة ماركيلوف الراسية فى مكانه هى وقفة ديدبان المعسكر الذى لا يتحرك ولا يتململ ولكنه يقظ متحفز فى حين كان نجدانوف يتمشى جيئة وذهاباً كالأسد الهائج المحبوس فى قفص . . .

وتناول الحديث الوسائل الضرورية والخطط القديمة المتبعة وعن الواجب الذى ينبغى أن يحمله على عاتقه كل واحد منهم ثم قاموا بانتقاء بعض كتيبات ومنشورات حزموها وأشار ماركيلوف باعطائها الى تاجر ثرى تقدمى النزعة اسمه جلوشكين ، ولشاب متحمس اسمه كيسليا كوف . . . وكذلك جرى على لسانه اسم المهندس سولومين ... فتذكر عندئذ نجدانوف أنه سمع ذلك الاسم على لسان سيبياجين فى موضع الاشادة بكفايته الهندسية ، فقال :

— أهو ذلك الشخص الذى يدير مصنعاً للقطن ؟

— هو بعينه . وينبغى أن تتعرف به واعتقادى فيه أنه شخص قدير جداً . . .

— ولكنك لم تحدثنا عن رجال مزرعتك أنت ؟ . أليس فيهم من يعتمد عليه ؟

— بل منهم صالحون جديرون بكل ثقة . . .

ولكنه لم يذكر أحداً منهم بالاسم . واستطرد يتحدث عن قوم من تجار البلدة عاصمة الاقليم وأكد أنهم على أتم استعداد للعمل عندما يصل الأمر الى الالتحام الجدى بالظالمين والمستغلين

وسأله نجدانوف أيضاً عن العسكريين من أهل المنطقة ، فهرش سوالفه وقال إنه ليس متأكداً من أمرهم ، ولهذا يجب الانتظار الى أن يجمع كسليا كوف عنهم ما فيه الكفاية من المعلومات فسأله نجدانوف وقد نفد

صبره لتكرار هذا الأسم كثيراً على لسان ماركيلوف :
— ومن هو كسليا كوف هذا ؟
فابتسم ماركيلوف ابتسامة ذات مغزى وقال :
— إنه شخص رائع وأنا شخصياً لا أعرف عنه إلا القليل ، لأنى لم أقابله من قبل إلا مرتين ولكن ينبغى أن ترى الخطابات التى يكتبها ! رسائل رائعة ! سأريها لك وسوف تحكم بنفسك أنه فياض بالحماسة ! وما أعظم نشاطه ! لقد طاف بالروسيا طولا وعرضاً أكثر من خمس مرات . وكتب رسائل من عشر صفحات كبيرة من كل مكان نزل به !
وكانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً عندما خمدت المناقشة وتسللوا الى مخادعهم ليختلسوا سنة من النوم
ولم يوات النوم نجدانوف فوزاً ، بل جلس فى الحجرة وحيداً يحملق أمامه ، وهو يعجب من نغمة الكبرياء والاخلاص التى تتبدى فى كل ما يقوله ماركيلوف ورجح عنده أن الرجل يعانى أزمة عاطفية ، وأخذه الاعجاب بطريقته فى تناسى آلامه الشخصية والانصراف بكل نفسه الى ما يراه حقاً ... وحدث نفسه قائلا :
— إنه محدود الذكاء ولا ريب .. ولكن أليس الأفضل ألف مرة أن يكون المرء مثله من أن يكون مثلى أنا .. ؟
ثم أفزعته هذه الفكرة الزرية عن نفسه ، فاحتد :
— ولكن ألست أنا أيضاً قادراً على التضحية مستعداً لها ؟ انتظروا أيها السادة وسوف ترون ما أنا كفء له ، مع أنى شاعر ومن عشاق الجمال ...
ورقد على الفراش البارد ، فسمع طرقاً على بابه ثم صوت ماشورينا يقول :
— طابت ليلتك . اعلم أننى جارتك ليس بيننا إلا الجدار ...
— وطابت ليلتك .. !
ثم تذكر أنها طول الليل لم تحول بصرها عنه وتساءل :
— ترى ماذا تريد منى ؟ ليتنى أستطيع النوم .. !
إلا أن توتر أعصابه جعله لا ينام الى أن علت الشمس فوق خط الأفق ، وعندئذ استولى عليه نعاس ثقيل مضطرب ... استيقظ منه بصداع حاد ، فأطل من النافذة على مزرعة ماركيلوف ... فتكشفت عن مكان حقير التربة ،

عاطل من كل أنواع الجمال والثروة . . .

ولما نزل نجدانوف ، وجد ماشورينا فى حجرة الجلوس بجوار السيموفار . وكانت تنتظره ولا ريب وأخبرته أن استرودوموف رحل فى مهمته ، ولن يعود قبل أسبوعين . وأن رب البيت مشغول مع فلاحيه فى قطع بعض الأشجار ، منتهزاً خلو الأيدى من العمل الزراعى المعتاد فى تلك الفترة

وشعر نجدانوف بإعياء قلبى من أثر الحديث الطويل ليلة أمس ، ولم يكن راضياً عن كل ما سمعه ، فهذا التهور لا تحمد عواقبه . ولكنه لم يجد فائدة فى إعادة البحث مع ماشورينا ، لأنه يعرفها متهورة ، لاتتردد فى تنفيذ الأوامر التى تصدر اليها بحذافيرها

ولما لم يجد عنده ما يقوله لها ، تخلص من حيرته بأن تناول قبعته وخرج للتجول فى الحقول . والتقى هناك ببعض فلاحى ماركيلوف من عتقائه وتحدث الى نفر منهم ، فلاحظ أنهم يكنون الحب لسيدهم ، ويرون فيه رجلا طيب القلب عطوفاً يد أنهم ينكرون منه غرابة أطواره ، وخروجه على مألوف العادات التى جرى عليها أسلافه . . .

— . . إنه رجل ماهر . ولكنك لاتستطيع أن تفهم ماذا يقول ، مهما اجتهدت فى ذلك . ولهذا فنحن نأخذه على علاته ، ولا نحاول فهم مرامى كلامه . . . لأنه طيب !

وبعد قليل التقى نجدانوف بماركيلوف نفسه ومن حوله رجاله ، وكان يشرح لواحد منهم شيئاً ، ويلوح بيديه لزيادة البيان ، والرجل المسكين لا يفقه عنه ، ولا يفتأ يهز رأسه قائلا :

— تماماً يا سيدى ! قولك حق يا سيدى !

فصرخ ماركيلوف فى وجهه بتقزز :

— ما هذا ؟ أريد شيئاً من الاستقلال فى الرأى !

— تماماً يا سيدى ! معك حق يا سيدى !

ولما لمح نجدانوف حياه بحرارة ، ثم سار معه يبثه غيظه من عقول الفلاحين الذين يرفضون الحرية ولا يدرون ماذا يصنعون بها حتى عاقهم نفسه

وعاد الاثنان الى البيت ، حيث تناولا مع ماشورينا طعام الغداء . وكان هذا الطعام يتكون من البيض المسلوق الجامد ، والسمك المملح ، واللحم

البارد . وبعد الغداء أمر ماركيلوف بإعداد العربة كي يعود بها نجدانوف
وظل ماركيلوف طول الغداء صامتاً والحقيقة أنه لم يصب من الطعام إلا قليلا ، بل كان يجد أيضاً صعوبة فى التنفس
وسألت ماشورينا نجدانوف هل يسمح لها بالركوب معه لغاية البلدة ، لحاجتها الى شراء بعض لوازمها من حوانيتها ، فرحب بها
وقام ماركيلوف بتوصيلها الى العربة ، مؤكداً أنه سيدعو نجدانوف لتكرار هذه الزيارة مراراً ، كي يتفقا على كل خطوات العمل نهائياً
— كذلك سولومين يجب أن يأتى فى أول فرصة فيشترك معنا فى العمل
— على فكرة ! ماذا عن تلك الرسائل التى أردت أن تطلعنى عليها ؟ رسائل صاحبك . . . ما اسمه ؟ . . أليس اسمه كسليا كوف ؟
— بلى ! فيما بعد سأريها لك . فى الزيارة القادمة . . .
ثم تحركت العربة . . .
وجلست ماشورينا تدخن صامتة طول الوقت ، إلى أن وصلت العربة الى أبواب البلدة ، فتنهدت من أعماقها وتجهم وجهها ثم قالت :
— إنى أشعر بالأسف له . أعنى سرجاى ميهايلوفتش
— إنه مرهق الأعصاب . ويبدو لى أن أعماله وأموره مضطربة
— لم أكن أفكر فى هذا!
— فيم كنت تفكرين إذن ؟
— إنه شقى سيء الحظ . يندر من يماثله فى طيبته . ولكنه عاثر الحظ
فنظر اليها نجدانوف ملياً وقال :
— أتعرفين عنه شيئاً معيناً ؟
— لا شيء بالتحديد . ولكن يمكنك أن ترى بنفسك مافيه الكفاية والآن وداعاً يا ألكساى ديمتريتش !
ثم هبطت من العربة . . .
وبعد ساعة كان نجدانوف أمام قصر آل سيبياجين ، وهو يشعر بالتعب لليلة التى قضاها مسهداً فى المناقشة والاحتداد
وطالعه من النافذة وجه مشرق بالابتسام ، هو وجه مدام سيبياجينا ترحب بعودته ، فلم يتمالك نفسه أن قال : « ما أبدع عينيها ! »

الوجوه الثلاثة

حضر العشاء فى تلك الليلة عدد كبير من الناس . فلما انتهى العشاء انتهز نجدانوف فرصة المرج العام والأحاديث المشتجرة على غير نظام فتسلل الى حجرته ، لأنه كان يريد أن يكون وحيداً فيخلو بأفكاره وخواطره ، وينظم ما حمله معه من رحلته الأخيرة من آراء وانطباعات

كان يشعر كأن حوله ضباباً من نوع ما ، ينسج أمام ناظريه ستاراً شفافاً يفصل بينه وبين بقية العالم . فلم يكن يستشف مما وراء ذلك الستار غير ثلاثة وجوه ، كلها وجوه نساء . وثلاثتها تنظر إليه وتحدق فيه ملياً

وكانت هذه الوجوه الثلاثة وجه مدام سيبياجين ووجه ماشورينا ، ووجه ماريانا . فما معنى ذلك كله ؟ ولماذا هذه الوجوه الثلاثة بالذات ؟ وماذا جمع بينها ؟ ما هو وجه الشبه الذى يؤلف بين ثلاثتها ؟ وماذا يردن منه ؟

آوى تلك الليلة إلى فراشه مبكراً . بيد أنه لم ينم لأنه لم يستطع النوم . فالخواطر الواجمة كانت تحوم حوله ، وهى خواطر النهاية المحتومة .. الموت !

ولم تكن هذه الخواطر بالغريبة عنه . فكثيراً ما قلبها فى ذهنه ، فكان يرتعد فى مبدأ الأمر فزعاً من إمكان العدم . ثم أصبح بعد أن ألف تلك الفكرة يرحب بها ، بل يكاد يغتبط لها

وفجأة تملكه انفعال من نوع خاص كان ينتابه فى أوقات متباعدة ، فأدرك أنها نوبة الشاعرية قد انتابته بوحيها . فشرد برهة ثم نهض وسجل قصيدة حزينة ، يوصى فيها رفيقه أن يحرق بعد أن يواريه التراب كل ما تخلف من آثاره وآثار قلمه

وفى اليوم التالى ، بعد أن فرغ من إلقاء درسه،جلس فىحجرة البلياردو وإذا مدام سيبياجين تدخل عليه ، ثم تتلفت حولها فى حذر،وبعد ذلك أقبلت نحوه باسمة وهمست إليه أن يتبعها إلى حجرة زينتها الخاصة

وكانت مدام سيباجين ترتدى ثوباً غاية فى البساطة من الحرير الأبيض الناصع زادها بهاء وإشراقاً . أما الكمان المطرزان فلا يتجاوزان الكوعين، ويكشفان عن معصمين كأنما صاغهما مثال مقتدر من مرمر ثارا الأبيض . ولا سيما أن شعرها كان يتهدل طليقاً على جيدها الناصع . أما خصرها فكان يطوقه فى رقة بالغة شريط جميل رفيع من الحرير . فكل شىء فيها كان كأنه دعوة لا تقاوم للغزل والمداعبة . ولم يكن جفناها المتكسران وما فى صوتها من خفوت وتكسر إلا لتزيد تلك الدعوة إلحاحاً

تقدمت مدام سيباجين بجدانوف الى حجرة زينتها الخاصة ، الصغيرة المتكلفة ذات الوسائد المريحة والأرائك الوثيرة ، والجو الذى يعبق بأنواع العطر الذى يبعث الخدر فى الأعصاب ، وفى العقل . ودعته إلى الجلوس فى مقعد كبير ثم جلست إلى جواره ، وراحت تسأله سؤال الأخت الحنون عن أحوال شقيقها كما تبدت له فى زيارته الأخيرة . ولم يفتها أن تكشف عن أسفها لذلك الشقيق ، وكيف أنه عاثر الحظ فى عمله ، وفى حبه

ولم يدرك نجدانوف على التحقيق إن كانت تعنى بهذا أن ماريانا لا تبادله عاطفته أم تراها تعنى أنه غير موفق إذ وقع اختيار قلبه على مثل هذه الفتاة . بيد أن ما لم يكن فيه شك هو اهتمامها باكتساب ثقة نجدانوف فيها ، وبإزالة حجاب الحياء الذى يطويه عنها . وذهبت فى ذلك الى حد أن عاتبته برقة لأنه يسىء الظن بها ولا يراها جديرة بنجوى نفسها

وظل نجدانوف يصغى إليها ويطيل النظر فى ذراعيها الرائعتين وكتفيها ، ثم يرفع طرفه بين الحين والحين إلى شفتيها الورديتين وغدائر شعرها الغزير السخى الناعم . وكانت إجاباته لها مقتضبة فى البداية ، لأنه كان يشعر بضيق فى تنفسه وجفاف فى حلقه . ثم بعد ذلك تلاشى ذلك الشعور ليفسح المجال لشعور آخر جعل يلح عليه . ومضمونه العجب لأن سيدة أرستقراطية ذات مكانة رفيعة مثلها تعنى نفسها بشخص مثله متواضع فى كل شىء ، إلى درجة استفزازه أن يغازلها . ولم يستطع أن يفهم مرادها ، وإن كانت قالت فى النهاية أن اهتمامها بتوثيق صداقتها به إنما هو بقصد التحدث فى شأن ابنها كوليا معه بحرية أتم ومناقشة نظرية التربية الروسية الحديثة

والحقيقة أن فالنتينا ميهايلوفنا لم تكن ترمى إلى ذلك . بل إن رغبة جامحة



« وظل نجدانوف يصغى إليها ويطيل النظر فى ذراعيها الرائعتين وكتفيها »

استولت عليها فجأة أن تقتنص هذا الشاب لمجرد لذة الاقتناص بعد أن شامت فيه التمرد ، وهى التى تعودت أن تتعلق بها القلوب والحواس ، وتتلذذ بخور الاعجاب وإن كانت لا تستجيب لدعوة من دعاواه

كان يلذ لها أن تشعر بالارتباك يسرى من مفاتنها فتضطرب له حياة الشبان الأغرار ، وهى جامدة فى مكانها كالصنم بعيدة عن متناول أيديهم ، لا لعفة فيها ، بل لأن العفة توائم مزاجها البارد إنها امرأة باردة عاطفياً ، وإن كانت تتغذى كبرياؤها بإلهاب دماء الشباب والرجال ، وتلجأ فى ذلك الى اصطناع الرقة والحنان . واثقة من أن ذلك التظاهر لا ينطوى على أى خطر لها

وهى تذكر بكل سرور كيف أن سكرتير إحدى القنصليات منذ سنوات حاول الانتحار يأساً من حبها بعد أن عبثت به طويلا فى قسوة بالغة ، فكفرت عن ذلك بإقامة ملجأ للعجزة على نفقتها ، ودفعت للقسيس مبلغاً كبيراً لإقامة صلوات دورية على روحه

فهى إذ تداعب اليوم نجدانوف وتحاول استدراجه الى حبالتها ، إنما تجرى فى ذلك على غريزتها العنكبوتية . فلما وجدت منه ذلك الانكماش ، ولا سيما باقتضاب ردوده ، راحت تسأله عن أسرته وطفولته ، فأدركت من سحنته أنها أخطأت الموضع وأصابته فى وتر موجع . فحاولت أن تصحح خطأها بمزيد من الرقة ، فجعلت تحدثه عن ذكرياتها هى وعن طفولتها لتبرهن له على ثقتها ومودتها . ولكنها عبثاً حاولت ، لأنه لم يستعد هدوءه . وانتهز أول فرصة توقفت فيها عن الكلام لحظة ، فنهض وانحنى لهـا انحناء يسيراً ، ثم خرج « بكل بلاهة » كما قال بعد ذلك عن نفسه وهو يسترجع تفاصيل تلك المقابلة فى حجرته

وعلى أثر خروجه من حجرة زينتها مر بقاعة البلياردو فوجد ماريانا هناك وكانت واقفة وظهرها الى النافذة على بعد يسير جداً من باب حجرة سيباجين ، وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها بشدة . فلما رأته رمقته بنظرة فاحصة جداً ، وارتسمت على شفتيها المطبقتين آيات الازدراء والرثاء المهين . فوقف جامداً متعجباً وقال لها دون أن يدرى :

— ألديك ما تقولينه لى ؟

فلم تجبه ماريانا برهة ، ثم قالت :

— كلا ... بل عندى . ولكن ليس الآن

— متى ؟ . . .

— يجب أن تنتظر برهة . ربما كان . . . غداً . وربما أيضاً إلى الأبد . لا أدرى على وجه التحقيق أى طراز من الناس أنت ؟

— ولكن . . . انى أشعر أحياناً . . . أن بيننا . . .

فقاطعته ماريانا قائلة :

— ولكنك تكاد لا تعرفنى على الاطلاق . انتظر قليلا . وبعد غداً . . . أما الآن فانى يجب أن أذهب الى . . . سيدتى . الى الغد

فتقدم نجدانوف خطوة أو خطوتين . ثم دار على عقبيه فجأة وقال :

— بهذه المناسبة ، هل تسمحين لى يا ماريانا فيكنتيفنا أن آتى معك الى المدرسة ذات يوم قبل أن تغلق أبوابها ؟ أحب أن أشاهد ما تصنعين هناك . فهل عندك مانع ؟

— بكل سرور ... ولكننى لم أكن أريد أن أتحدث اليك عن المدرسة

— عن أى شىء إذن ؟

فلم تزد ماريانا على أن قالت مرة أخرى :

— إلى الغد . . .

بيد أنها لم تنتظر الى اليوم التالى ، بل جرى الحديث بينها وبين نجدانوف فى ذلك اليوم نفسه فى ممر من ممرات الحديقة غير بعيد من الشرفة

▭

رآها مقبلة نحوه وكانت هى البادئة بالكلام :

— يا مستر نجدانوف . يبدو لى أنك مفتون جداً بفالنتينا ميهايلوفنا

ثم تحولت فى منعطف المشى من غير أن تنتظر اليه . فتبعها سائراً الى جوارها وقال :

— ما الذى يدعوك الى هذا الظن ؟

— أليس هذا هو الواقع ؟ إن لم يكن كذلك فهى قد أساءت السلوك اليوم فى بلاهة . وأستطيع أن أتصور إلى أى حد أتعبت نفسها فى نصب شباكها الواهية !

فلم ينطق نجدانوف بكلمة ، واكتفى بالنظر اليها من جانب عينيه ، فاستطردت :

— اسمع . لا جدوى من التمويه . أنا لا أحب فالنتينا ميهايلوفنا . وأنت تعرف هذا جيداً . . . وربما كنت ظالمة فى الظاهر . . . ولكننى أريد منك أن تسمعنى أولا

— وبدأ صوت ماريانا يرتعد ، واحمر وجهها من شدة الانفعال ، وكانت حين تنفعل تبدو دائماً كأنها توشك أن تنفجر باكية من الغيظ . .

— إنك ولا ريب تسأل نفسك : لماذا تضايقنى هذه الشابة بكل هذا الحديث ؟ ولا أظنك إلا قلت هذا لنفسك أيضاً عندما حدثتك عن ماركيلوف

وانحنت الى الأمام فقطفت نباتاً صغيراً مزقته بأصابعها ثم ألقته بعيداً

— أنت مخطئة فى هذا يا ماريانا فيكنتيفنا . بل إنى مسرور لاكتشاف أننى أوحى اليك بالثقة . . .

— إننى لا أقول هذا الكلام لك لأنك توحى إلىّ بالثقة تماماً . فأنت رجل غريب عنى . بيد أن وضعك ، ووضعى متشابهان جداً . فكلانا شقى . وهذا فى حد ذاته رابط قوى بيننا

— هل أنت شقية ؟ !

— وأنت ؟ ألست شقياً ؟ !

فسكت نجدانوف ولم يقل شيئاً . فسألته بسرعة :

— أتعرف قصتى ؟ أعنى قصة نفى والدى ؟ ألا تعرفها ؟ إذن هاك هى : لقد قبض عليه وحوكم وحكم عليه بالتجريد من رتبته ومن كل شىء .. وأرسل إلى سيبيريا منفياً ... حيث مات هناك . ووالدتى ماتت أيضاً . وقد تولى خالى للستر سيبياجين أمر تربيتى ... فأنا عالة عليه لأنه رب نعمتى ، وكذلك فالنتينا ميهايلوفنا ربة نعمتى ... وأنا أجزيهما بالعقوق والنكران لجحود قلبى . بيد ان خبز الصدقة مر يا أخى . ولا طاقة لى باحتمال ذلك التنازل المهين الذى يبدو فى نظر الناس تواضعاً من المحسنين محموداً . ولا قدرة لى على اخفاء مشاعرى . إلا اننى حين أتألم لا أبكى ، فرط كبرياء منى

وكانت ماريانا قد أسرعت الخطو وهى تلقى عباراتها الأخيرة . ثم وقفت فجأة:

— أتدرى ان زوجة خالى تذهب فى رغبتها للتخلص منى إلى حد العمل

على تزويجي من هذا البغيض كولوميتزيف ؟ انها تعرف آرائي جيداً ... فأنا في نظرها أكاد أكون عدمية - وهو ! انه حقيقة لا يهتم بي ... فأنا لست حسنة المنظر ، ولكن هذا لا يمنع من امكان بيعي بضحي باثنة مغرية له . وهي كما ترى صدقة أخرى تضاف الى صدقاتهما السابقة العديدة

— ولماذا لم ...

— ما الذي يجعلك لا تتم سؤالك ؟ أحسبك أردت أن تسألني لماذا لم أقبل خطبة مستر ماركيلوف ؟ وماذا كنت تريدني أن أصنع ؟ انه رجل طيب حقاً ، ولكن ليس الذنب ذنبي على كل حال في انني لا أحبه

ولم يعلق بكلمة . وكان يبدو من اسراعها ونظرها الى الأمام انها تريد تجنيبه مشقة التعليق . حتى إذا وصل الاثنان الى نهاية المشى اثنت ماريانا بسرعة الى ممر ضيق ينتهي الى خميلة من الشجيرات كثيفة ، فتبعها نجدانوف الى هناك . وكان واقعاً تحت تأثير دهشة مزدوجة . فهو يتعجب أولا لصراحة هذه الفتاة الخجول . ويتعجب ثانياً لأنه لم يؤخذ بتلك الصراحة بل كان في أعماق نفسه يراها طبيعية جداً

وفجأة وقفت ماريانا وواجهته بحيث كانت المسافة بين أنفيهما متراً واحداً على الأكثر ، وحدقت في عينيه ثم قالت :

— أرجو يا ألكساي ديمتريتش ألا تعتقد ان زوجة خالي امرأة سيئة . فهي ليست كذلك . انها فقط مخادعة وممثلة ومتكلفة . وتريد أن ترى كل انسان راكعاً تحت قدميها يتقرب الى جمالها ويتعبد الى قدسيتها ! ولها قدرة على تنميق الكلام الذي تمده في عزلتها ، وفي تعزيزه بنظرات أكيدة المفعول من عينيها الساحرتين . فتظنها محبة للبشر جميعاً ، وقلبها لا ينبض بالحب لانسان . حتى ولا لابنها كوليا الذي تتظاهر دائماً بالقلق عليه . وثق انها لن تتعب نفسها عد أصبع واحدة من يديها لانقاذك ان لم يكن لها في ذلك فائدة !

وكانت أشعة من الشمس الغاربة تخترق الأغصان وتسقط على وجهها المحتقن بالانفعال وشعرها القصير المشعث وشفتيها الرقيقتين . فأكسبها ذلك في عينيه صورة خاصة من صور الجمال متميزة بتعبيرها . وكان صوتها الصادق النبرات ينسجم مع تلك الصورة المعبرة كل الانسجام . فقال لها بعد برهة تأمل :

— لماذا تظنيننى شقياً ؟ أتعرفين شيئاً عنى ؟. وماذا تعرفين ؟ هل تحدث أحد اليك عنى ؟

— أعرف قصة مولدك وسر نسبك . وقد أخبرتنى ذلك فالنتينا ميهايلوفنا طبعاً . تلك التى تعجب أنت بها كثيراً

— وماذا يحدو بك الى هذا الظن ؟

— لأنكما تحدثتما طويلا على انفراد

— ولكنها هى التى كانت تتكلم طول الوقت

فغضت بصرها ومشت مطرقة إلى أقرب مقعد فجلست وجلس بجوارها وقالت :

— انك تريد أن ترى المدرسة . فاعلم ان المعلم الأساسى فيها هو القسيس وهو رجل طيب لكنه يحشر أذهان الأطفال بالخرافات

وهكذا غيرت ماريانا موضوع الحديث . وأخذ لونها يشحب لكن تغالب انفعالا

— الحقيقة ياماريانا فيكتيفنا انى فوجئت بهذا الحديث الذى جعلنى وجعلك صديقين حميمين جداً . ولكن هذا هو ما كان ينبغى أن يكون . فان بيننا تقارباً فى الروح لم نحتج لادراكه الى التعبير اللفظى من قبل . ولكن هذا يتيح لى أن أتحدث اليك عن نفسى فى صراحة كصراحتك . ولكن ألا يفهم خالك وضعك الحقيقى ، وهو فيما أرى رجل لا يخلو من ذكاء وعطف ؟

— ان خالى موظف أولا وقبل كل شىء . ثم هو بعد ذلك واقع تحت تأثير زوجته الحسناء البارعة فى كل شىء . ولا يرى إلا بعينيها . ولكن ثق ان ألاعيبها لا تنال منى شيئاً ، لأنى حرة الروح تماماً . فان كنت أقول انى شقية ، فليس ذلك بسبب متاعبى الشخصية ، بل بسبب ما أشعر به من ضنك شديد يخيم على نفوس الروس جميعاً . لهذا أثور من أجلهم وأتألم . وأنا على استعداد أن أذهب الى المقصلة من أجلهم . وكم يسعدنى أن أنفى الى سيبيريا كما نفى أبى ! فكم احتقرت هؤلاء الأثرياء المنعمين بعد نفى أبى الى سيبيريا . ولكنى شعرت بالارتياح عندما مات بعد العفو عنه وعودته من هناك محطم الجسد والروح

وفى هذه اللحظة تراءى من بين الأغصان شبح امرأة عن بعد ، فنهضت ماريانا فجأة وهى تقول :

— ها هى صاحبتك قد أرسلت جاسوستها . فهذه الخادمة هى المكلفة بمراقبتى وابلاغ حركاتى وسكناتى الى سيدتها . وقد أدركت زوجة خالى بفطنتها انى مجتمعة بك . ولاشك ان ذلك سيسوؤها منك جداً ، ولاسيما بعد خلوتكما العاطفية الرقيقة أخيراً . وعلى كل حال آن أن نعود

فنهض نجدانوف ، ونظرت اليه نظرة طفولة بريئة وسألته :

— أرجو ألا تكون غاضباً منى . وألا تظننى أسعى لاكتساب عطفك ومودتك . كل ما هناك انك شقى مثلى ، وطبيعتك ... سيئة مثل طبيعتى ! وعلى كل حال سنذهب الى المدرسة غداً معاً . فنحن منذ الآن صديقان

▭

انقضى أسبوعان آخران ، وكل شىء يجرى فى تياره المألوف من حيث نظام المعيشة والقاء الدروس وسهرات لعب الورق فى المساء

وجعل نجدانوف نصب عينيه ما اقترحه ماكلين والآخرون ، وبذل كل ما فى وسعه للاتصال بالفلاحين . بيد انه اكتشف ان جهوده لم تتجاوز محاولة فهمهم ودرس حياتهم وطباعهم بالملاحظة . أما الدعاية فلم يفعل فى صددها شيئاً على الاطلاق !

وكان نجدانوف قد أمضى حياته كلها فى المدينة . ولذلك ألفى بينه وبين أهل الريف هوة قدر عجزه عن اجتيازها . ولذلك طاب له أن يدرس ذلك الفريق من الناس باهتمام ذهنى ووجدانى . وكانت هذه هى اللذة الوحيدة التى أدخلت عنصر التشويق فى تلك الأيام التى تتوالى أشباهاً فى بطء شديد

والواقع ان تغيراً غريباً بدأ يطرأ على نفسية نجدانوف . فهو يشعر انه غير راض عن نفسه ، أى عن خموله وكسله ، لهذا جعل يلوم نفسه لوماً مراً . وفى الوقت نفسه كان يحس فى أعماق سريرته بذرة من بذور السعادة تهدىء من سخطه وتمسح جراحه . فهل كانت هذه السعادة الطارئة التى لم يشعر بها فى أى يوم من أيام حياته من قبل نتيجة الحياة الريفية الهادئة ، والصيف ، والهواء الطلق ، والغذاء الجيد ، والسكن الجميل ، أم تراها راجعة الى انه كان يتذوق لأول مرة فى حياته ما فى الاتصال بروح امرأة من عذوبة وراحة ؟

سؤال من العسير أن نجيب عليه جواباً شافياً . ولكنه على كل حال كان يشعر بالسعادة ، على الرغم من شكواه التى كان يسطرها الى صديقه الحميم سيلين

ولـكن هذه السعادة وا أسفاه أصيبت بالانتقاض فى سحابة يوم واحد

ففى صباح ذلك اليوم تلقى نجدانوف رسالة من فاسيلى نيقولايفتش يأمره فيها هو وماركيلوف ألا يضيع لحظة فى الوصول الى اتفاق مع سولومين وتاجر اسمه جولوشكين من قدماء الأنصار يعيش فى بلدة (س..)

واضطرب نجدانوف لهذا الخطاب كثيراً ، لما فى طوايا لهجته من تأنيب له على خموله . فطفا سخطه على نفسه من الأعماق الى السطح فى قوة وشمول

وفى ذلك اليوم حضر للعشاء الزائر المعتاد كولوميتزيف . وكان فى حالة هياج وانزعاج . فبادر يصيح وهو يكاد يبكى :

— أيمكن أن تصدقوا هذا ؟ أتعلمون أى فظائع قرأت فى الصحف ؟ ان صديقى المحبوب ميكال ، الأمير الصربى ، قتله نفر من الغوغاء فى بلغراد ! وهذه هى العاقبة التى تنتظرنا جميعاً على يد الثوريين ان لم نضع لنشاطهم جميعاً حداً

وكان تعليق سيبياجين على ذلك ان هذه الجريمة الفظيعة ربما لم تكن من صنع الثوريين الذين يعنيهم كولوميتزيف . فربما لم يكن أحد منهم فى بلاد الصرب. بل ربما كانت من صنع الحزب السياسى المنافس لحزب الأمير . وأبى كولوميتزيف أن يصغى لشىء من ذلك ، وراح يعدد مناقب الأمير الفقيد وكيف كان يوليه حبه ، وكيف أهداه يوماً بندقية جميلة . وصب اللعنات على الثوريين والعدميين والاشتراكيين . ثم ثبت عينيه على نجدانوف كأنه يقول :

— انى أعنيك أنت بهذا !

ولم يطق نجدانوف أكثر من ذلك . وشرع بصوت مضعضع يدافع عن مبادئه التى هى مبادىء وآمال وأهداف الجيل الحديث . فكان هـذا كافياً لتحول كولوميتزيف الى السباب الصريح . فانحاز سيبياجين الى جانب نجدانوف. وانضمت فالنتينا ميهايلوفنا بطبيعة الحال الى فريق زوجها . أما ماريانا فلم تتحرك وكأنها تحولت الى حجر

واستشهد كولوميتزيف بأقوال وكتابات لاديسلاس . فلما سمع نجدانوف هذا الاسم يتكرر على لسانه عشرين مرة ضرب المائدة بيده وصاح :

— أن لاديسلاس ليس إلا جاسوسا !

فكاد كولوميتزيف يختنق من الغيظ وهو يصرخ :

— ماذا تقول ؟ كيف تجرؤ أن تقول هذا عن رجل يحترمه اناس مثل

الأمير بلازنكرانف والأمير كوفريشكين !

فهز نجدانوف كتفيه وقال ببرود :

— يا لها من تزكية حميدة ! إن هذا الأمير كوفريشكين ...

فصرخ كولوميتزيف كالمجنون :

— ان لاديسلاس صديقى ، وزميلى ، وأنا ...

فقاطعه نجدانوف قائلا :

— وهذا لا يشرفك . فمعناه انك تشاركه فى طريقة تفكيره . وفى هذه الحالة ينصرف اليك أنت أيضاً كل ما وصفته به

فاصفر وجه كولوميتزيف حتى حاكى وجوه الموتى وصاح :

— ماذا ؟ كيف ؟ انك يجب ... وفى الحال ...

فسأله نجدانوف بأدب ساخر : « ماهذا الذى تريد أن تصنع بى وفى الحال ؟ »

وكان الله وحده يعلم الى أى مدى كان من الممكن أن تصل هذه الشاحنة بين هذين العدوين ، لولا ان سيبياجين وضع بنفسه حداً لها وهى فى ابانها . إذ رفع صوته وقال بلهجة الحزم والجد التى تمتزج فيها سلطة رب الدار بسلطة رجل الدولة انه لا يقبل أن تقال تحت سقفه أو على مائدته مثل هذه الألفاظ الجارحة . وانه وضع منذ زمن طويل قاعدة مقدسة هى احترام جميع المذاهب والآراء ما دامت تلتزم حدود الأدب واللياقة . وانه إن كان لا يجد مناصاً من الاعتراض على تعبيرات نجدانوف العنيفة الصادرة عن حداثة سنه ، فهو كذلك لا يستطيع أن يقر كولوميتزيف على هجماته المرة ضد المعسكر الآخر ، تلك الهجمات التى تعزى الى فرط اهتمامه بالصالح الاجتماعى العام . وعقب على ذلك بقوله :

— تحت سقف آل سيبياجين لا وجود لثوريين ولا وجود للجواسيس . وإنما الجميع قوم شرفاء أمناء يحرصون على حسن التفاهم وتبادل وجهات النظر فى إخلاص ومودة أخوية تضع حداً لاختلافاتهم بحيث تنتهى بمصالحة

وسكت نجدانوف وكولوميتزيف فلم ينطقا بعد ذلك بكلمة فى هذا الموضوع . وإن لم يتصالحا . لأن الفهم المتبادل بينهما لم يكن قد حان موعده بعد . بل الواقع انهما لم يشعرا بكراهة وعداء كشعورهما بذلك فى تلك اللحظة

وانتهى العشاء فى جو من الانقباض . ولما حاول سيبياجين اعادة المرح ببعض نوادره فشل فى ذلك

المكاشفة

انتهز نجدانوف أول فرصة لائقة بعد العشاء وانسحب إلى حجرته وأقفل عليه بابها ، لأنه كان لا يريد أن يرى أحـداً على الاطلاق ماعدا ماريانا وكانت حجرتها تقع فى أقصى النهاية من ذلك الدهليز الطويل الذى يقسم الطابق العلوى قسمين ولم يسبق لنجدانوف أن ذهب الى هناك إلا بضع لحظات . ومع هذا خيل اليه أنها لا تمانع فى أن يطرق بابها

وكانت الساعة قربت من العاشرة وهو يذرع الحجرة فى اضطراب . ثم فتح بابه واخترق الدهليز وطرق باب ماريانا . فلم يتلق رداً . فطرق مرة أخرى . ثم حرك مقبض الباب فوجده مقفلا من الداخل . فرجع الى حجرته . ولـكنه لم يكد يجلس حتى فتح الباب بهدوء وسمع صوت ماريانا تقول له :

— هل كنت أنت يا ألـكساى ديمتريتش الذى طرقت بابى ؟

فقفز فى الحال واندفع الى الدهليز ليراها واقفة خلف الباب وفى يدها شمعة ، وشحب وجهها الجامد الأسارير . فهمس قائلا :

— نعم . . . كنت . . .

فقالت وهى تدور لتتجه نحو حجرتها :

— إذن تعال . . .

ولـكن قبل أن تصل إلى نهاية الدهليز دفعت باباً منخفضاً ففتحته ورأى نجدانوف أمامه حجرة صغيرة تكاد تكون خالية من الأثاث

— يحسن أن ندخل الى هنا يا ألـكساى ديمتريتش . فهنا سوف لا يقطع علينا حديثنا أحد

فأطاع نجدانوف ووضعت ماريانا الشمعدان على حرف نافذة . ثم التفتت اليه وبدأته الكلام :

— أنا فاهمة لماذا تريد أن تراني فمن المؤلم لك جداً أن تعيش فى هذا البيت . وكذلك حالى أنا

— أجل يا ماريانا فيكنتيفنا . أردت أن أراك . ولكنى لا أشعر بالتعاسة لوجودى هنا مادمت قد عرفتك

فابتسمت ماريانا فى إطراق وقالت :

— شكراً لك يا ألكساى ديمتريتش . ولكن خبرنى . أتنوى حقاً أن تمكث فى هذا البيت بعد هذا الذى حدث ؟

— لا أظن أنهم يبقوننى . بل سوف يفصلوننى . . .

— ولكن ألا تنوى أن تذهب من تلقاء نفسك ؟

— أنا ؟ . . كلا ! . .

— ولم لا ؟ . .

— أتريدين أن تعرفى الحقيقة ؟ . . لأنك هنا !

فأطرقت ماريانا وابتعدت عنه قليلا . فاستطرد نجدانوف قائلا :

— ومن جهة أخرى يجب أن أبقى هنا . إنك لا تعرفين شيئاً . ولكننى أشعر أن من واجبى أن أطلعك على كل شىء

واقترب من ماريانا وأمسك يدها . فلم تسحبها . بل نظرت فى وجهه بثبات :

— اسمعى ! اسمعى ! . .

ومن غير أن يجلس فى أحد المقاعد الثلاثة الموجودة فى الغرفة استمر واقفاً ممسكا بيدها فى يده وقد رفعت حماسته من درجة حرارته فانطلق لسانه بصورة أدهشته شخصياً . وراح يروى لها الأسباب السرية لقبوله العمل لدى سيبياجين . كما أخبرها عن اتصالاته السياسية وعن ماضيه بما فيه من أشياء كان حريصاً على إخفائها عن الناس كافة . ولم يترك خافياً عنها رسائل فاسيلى نيقولايفتش وسيلين وكانت هى تصغى اليه بانتباه وهى مبهورة فى أول الأمر . ولكن ذلك الشعور تلاشى وفاض قلبها بالامتنان والفخر والولاء فلمع وجهها وأشرقت عيناها ووضعت يدها الأخرى على يد نجدانوف ، وانفرجت شفتاها فى نشوة . وأصبحت جميلة جمالا رائعاً

ولما فرغ من كلامه أخيراً ورأى وجهها لأول مرة وهو على هذه الصورة تنهد تنهداً عميقاً وقال :

— أشعر براحة عظيمة لأنى أفضيت اليك بكل شىء !

فأجابت هامسة فى صوت يفيض بالاخلاص والرهبة :

— وما كان أحسن هذا الحديث ! فهو يعنى أنى سأكون نافعة لك فى خدمة القضية لأنى مستعدة أن أقوم بكل ما تفرضه على الكافحين ، وأن أذهب الى أى مكان فى سبيل القيام بتلك الخدمة لأنى كنت مشتاقة منذ زمن طويل للقيام بهذا الكفاح الذى يجدر أن توهب له الحياة

ثم توقفت عن الكلام فجأة ، لأنها شعرت أنها لو زادت حرفاً واحداً لانهمرت دموعها . فكل شىء فيها كان قد انصهر كالشمع ، واستولى عليها ظمأ شديد الى النشاط والتضحية بالذات

وفى هذه اللحظة سمعت خطوات من الجانب الآخر من الباب ومر بسرعة وقع هذه الخطوات الحاذرة ، فتباعدت ماريانا وخلصت يديها من يديه ، وارتسمت على وجهها أمارات السرور والجرأة والتحدى ثم قالت :

— أنا أعرف من الذى كان يتسمع وراء الباب فى هذه اللحظة إن مدام سيبياجين تتلصص على حديثنا . ولكن هذا لا يهمنى !

وكان صوتها مسموعاً كى تلتقطه بوضوح الأذن التى تتسمع . ولما تلاشى وقع الأقدام التفتت ماريانا الى نجدانوف وسألته :

— والآن ماذا أصنع ؟ كيف أساعدك ؟ خبرنى بسرعة !

— لا أدرى حتى الآن . فقد تلقيت مذكرة من ماركيلوف . . .

— ومتى تلقيتها ؟ متى ؟

— هذا المساء . إذ يجب أن نتوجه لنقابل سولومين فى المصنع غداً

— إن ماركيلوف رجل رائع ! إنه صديق حقيق !

— مثلى أنا ؟ . .

— كلا . . ليس مثلك !

— وكيف ذلك ؟

فأشاحت بوجهها فجأة ثم قالت له :

— ألم تدرك بعد ماذا أصبحت بالنسبة لى ، وما هو شعورى الآن ؟ !

فجعل قلب نجدانوف يدق دقاً عنيفاً وأطرق برأسه . فهذه الفتاة الفقيرة اليتيمة الوحيدة التى تحبه قد أصبحت فى هذه اللحظة تمثل له كل ما هو حق

وكل ما هو خير على وجه الأرض . ففيها يتجسد حب الأم والأخت والزوجة وكل ما لم يعرفه فى حياته . بل والوطن والسعادة والكفاح والحرية !

— غداً سأذهب فى تلك المهمة . وعندما أعود سأخبرك بكل ما قررناه . فمنذ الآن سأطلعك أولا بأول على أفكارى وأعمالى

فتشبثت بيديه وقالت له :

— وأنا أعدك أن أفعل ذلك أيضاً

— من العجيب أننا اكتشفنا حبنا ومع ذلك لم نتبادل الحديث فى هذا الموضوع لحظة واحدة

— لأنه لم يكن لذلك لزوم

وبغتة ألقت بذراعيها حول عنقه ، وضغطت برأسها على صدره . ولكنهما لم يتبادلا القبلات . وقد كان ذلك حرياً أن يبدو لهما عملا سوقياً مبتذلا شنيعاً . بيد أنهما تبادلا ! ضغط على اليدين عند الفراق

وتناولت ماريانا الشمعة التى كانت قد تركتها على حافة النافذة . فنفختها وتسللت فى الظلام بسرعة الى نهاية الدهليز ، فدخلت حجرتها وخلعت ملابسها ثم دخلت فراشها ، وهى تحس للظلمة من حولها ألفة وأنساً

▭

استيقظ نجدانوف فى صباح اليوم التالى وهو لا يشعر بأى ضيق للذى حدث فى الليلة السابقة . بل كان على العكس مملوء النفس بنوع من السرور كأنه قام بأداء مهمة كان ينبغى عليه أن يقوم بها منذ أمد طويل

واستأذن من سيبياجين فى إجازة مدة يومين . فأذن له ولكن فى شيء من الصرامة وانطلق نجدانوف الى دار ماركيلوف بعد أن التقى بماريانا برهة قصيرة فوجد حالتها النفسية تشبه حالته من السرور والثقة والارتياح ورجته أن يخبرها بكل ما يجرى فى الاجتماع الذى سيتم فى المصنع

وقد وجد ماركيلوف فى حالة نفسية سيئة من الوجوم والسخط . وبعد وجبة مرتجلة ركبا عربة ماركيلوف المعهودة الى مصنع القطن الذى يديره ويعيش فيه سولومين . وكان سولومين على علم سابق بقدومهما . فما ان وقفت العربة عند أبواب المصنع حتى ادخلا الى جناح قبيح الصورة هو المقر الذى يقيم فيه المهندس المدير . وكان المدير نفسه فى البناء الرئيسى للمصنع ، فأسرع

أحد العمال ليأتى به . وقال نجدانوف بعد أن قلب بصره فى أرجاء المكان

— لقد سمعت الكثير من مصادر شق عن كفاية سولومين الممتازة . ولهذا أعترف أننى دهشت لتلك الفوضى التى لم أكن أتوقعها

— لا ينبغى أن تدهش . فسولومين يجب أن يروض نفسه على الانسجام مع البيئة الواقعية للعمال الروس ومع صاحب المصنع نفسه ، وهو من أبشع مصاصى الدماء بين تجار موسكو

وفى هذه اللحظة دخل سولومين فاذا به يفاجأ فى شخصه بما خيب آماله . إذ كان يبدو لأول وهلة وكأنه فنلندى أو سويدى . فهو طويل رفيع عريض الكتفين لا لون لحاجبيه أو رموشه ، طويل الوجه قصير الأنف ضخمه ، له عينان صغيرتان يميل لونهما الى الخضرة وشفتان غليظتان غير منتظمتين وأسنان كبيرة ، وذقن مقسوم من النصف مكسو بشبه لحية خفيفة . وقد ارتدى ملابس ميكانيكى ذات جيوب منتفخة ملآنة بأشياء مختلفة . وحول عنقه لفاعة من الصوف وفى قدميه حذاء ملطخ بالشحم . وكان يرافقه رجل فى نحو الأربعين يرتدى معطف الفلاحين ويبدو وجهه كوجوه الغجر بعينين سوداوين ثاقبتين كالفحم الحجرى . وكان اسمه بافل

وتقدم سولومين يبطء نحو الرجلين وشد على يديهما من غير أن يقول كلمة واحدة . ثم فتح درجاً أخرج منه خطاباً مختوماً ، أعطاه لتابعه بافل من غير أن يقول له شيئاً أيضاً فغادر بافل الحجرة على الفور ثم تمطى سولومين وطوح قبعته بعيداً وجلس على مقعد من الخشب ثم أشار الى الأريكة كى يجلس عليها نجدانوف وماركيلوف

وقام ماركيلوف أولا بتقديم نجدانوف ، فصافحه سولومين مرة ثانية ثم بدأ الكلام فى المهمة بعد أن سلم نجدانوف الى سولومين رسالة فاسيلى نيقولايفتش فقرأها سولومين يبطء ثم قال بصوته الأجش الفياض بالقوة والعذوبة :

— أخشى أن يكون الحديث هنا غير مناسب . فلماذا لا نذهب الى بيتك يا ماركيلوف ؟ ولا سيما أن عربتك موجودة . ويمكننى أن أتم أعمالى العاجلة وأستعد للذهاب فى مدى ساعة ، فالمسافة لا تزيد على سبعة أميال . ونقضى هذه الليلة عندك

— بكل سرور .

وبعد ساعة رحلت العربة بالرجال الثلاثة . ولكن نحب هنا أن نذكر كلمة عن سولومين . فهو الابن الوحيد لقسيس . وله خمس أخوات تزوجن جميعاً من قسوس . وكان هو كذلك حرياً أن يصبح قسيساً . بيد أن أباه رضخ لرغبته فدرس الرياضيات والميكانيكا . ودخل مصنعاً يديره رجل انجليزى أحبه كابنه . ثم بعث به الى منشستر حيث قضى سنتين تعلم فيهما ميكانيكا المصانع كما أتقن فيهما اللغة الانجليزية ولما عاد استخدمه هـذا التاجر المسكوفى مديراً لهذا المصنع منذ زمن وجيز . وكان شديد التدقيق على مرؤوسيه ، وهى طريقة تعلمها عن الانجليز بيد أن مرؤوسيه كانوا يحبونه رغم هذا كله وكانوا يعاملونه كما لو كان واحداً منهم . وأصبح سولومين موضع فخر والده الذى لم يكن يعيب عليه إلا شيئاً واحداً ، وهو أنه لم يتزوج ويستقر

وفى المناقشة التى دارت فى العربة حول خطط المستقبل بين ماركيلوف ونجدانوف ظل سولومين صامتاً إلى أن تعرضا للآمال التى يبنيانها على ضم عمال مصنع القطن الى الحزب فاذا به يقول :

— ان العمال فى روسيا ليسوا من طراز العمال فى الخارج . لهذا لاينبغى أن نعقد عليهم آمالا كبيرة . أما الفلاحون فقد تحسنت أحوالهم المالية فى المدة الأخيرة حتى صار منهم عدد لا بأس به من المرابين ، ثم إنهم لا ينظرون إلا الى مصالحهم الفردية المباشرة ومعظمهم جهلاء كالأغنام

— الى من نلجأ إذن ؟

فظلت الابتسامة معلقة على شفتيه ولم يجب

ولما وصلت العربة إلى بيت ماركيلوف استؤنفت المناقشة. وأظهر نجدانوف حماسة كبيرة . وجعلت الكلمات تتدفق من فمه ، فنهض سولومين بهدوء وعبر الحجرة بخطوات واسعة حيث أغلق نافذة كانت مفتوحة فوق رأس نجدانوف مباشرة وقال :

— خشيت أن تصاب بالبرد . لأنى أراك تتحمس فترتفع درجة حرارتك !

وبدأ نجدانوف يسأله عن مصنعه بالذات ، وهل أمكن إنشـاء أى خلية تعاونية فيه أو اتخاذ أى خطوة كى يشارك العمال فى الأرباح

— يا عزيزى ! لقد أسست مدرسة وعيادة صغيرة . ولـكن هذه الخطوة اليسيرة لقيت من صاحب المصنع مقاومة كمقاومة الدب

وتطرق الحديث بعد ذلك إلى أنواع الضغط والعسف التي يتلقاها الكادحون فى كل مكان . ولما تعرضوا للأحكام القضائية الظالمة التي تصادر بها ثمرات نشاط العمال لرفع مستوى معيشتهم ، تحمس سولومين وظهرت فيه بوادر الغضب وجعل يدق المنضدة بيده

ولم يشعر الثلاثة إلا وقد دقت الساعة الرابعة صباحاً . وكان ماركيلوف ونجدانوف فى حالة من الاعياء لا مزيد عليها . أما سولومين فكان لهدوئه معظم الوقت لا يشعر بأى تعب . وآوى كل منهم الى فراشه بعد أن اتفقوا على زيارة التاجر جولوشكين . وإن كان سولومين قد أبدى شكه فى جدوى مثل تلك الزيارة



العنزة .. والبطل

كان ضيفا ماركيلوف نائمين عند ما حمل رسول من قبل شقيقته مدام سيباجين رسالة اليه . وفى هذه الرسالة تحدثت عن بعض تفاصيل عائلية . وطلبت منه أن يرد كتاباً كان قد استعاره . وأضافت فى حاشية ان معبودته ماريانا وقعت فى غرام نجدانوف الذى يبادلها عواطفها . وان هذا ليس من قبيل الاشاعات ، بل انها تبنى هذا الخبر على مارأته بعينها وسمعته بأذنها

واسود وجه ماركيلوف حتى حاكى وجوه الموتى . بيد انه لم ينطق بحرف. وأمر باعادة الكتاب المستعار . وحين رأى نجدانوف يهبط من حجرته رحب به كالعادة . ثم أعطاه مجموعة خطابات كسليا كوف ليقرأها وغادره الى المزرعة. فعاد نجدانوف الى حجرته ليتفرغ لتلك القراءة

وبعد برهة اجتمع الأصدقاء الثلاثة لتناول الشاى فى قاعة الطعام . ولكن لم تتجدد بينهما مناقشات الأمس . بيد ان سولومين كان الوحيد الذى كان هادئاً فى صمته . أما نجدانوف وماركيلوف فكان يبدو عليهما الاضطراب الداخلى . وبعد الفراغ من الشاى شدوا الرحال إلى البلدة

وكان التاجر جولوشكين الذى سيراه نجدانوف لأول مرة ابن تاجر عقاقير ثرى جداً ، ولكنه لم ينم ثروة أبيه لأنه كان أبيقورى النزعة لايشعر بأى ميل نحو الأعمال الجدية . وكانت سنه نحو الأربعين ، بديناً قبيح الشكل ، به آثار الجدرى ، وله عينان صغيرتان أشبه بعينى خنزير . وكان يتكلم بسرعة ، ويزدرد جانباً من كلماته ، ثم ينفجر ضاحكا بين كل عبارة وأخرى بغير مناسبة . وهو على الجملة يقع من النفس موقعاً يدل على الغباء والغرور والجلافة . وكان يعتبر نفسه مثقفاً لأنه يرتدى ملابسه على الطريقة الألمانية ، ويفتح بيته لكل مثقف (وهذا البيت ليس غاية فى النظافة) ويرتاد المسارح ، وله عشيقات ومحظيات بين الراقصات ، ويتحدث برطانة غير مفهومة لأحد من أهل باريس وإن كان

يسميها رطانة فرنسية . وهدفه الأكبر فى الحياة أن يغدو مشهوراً يشار اليه بالبنان بأى ثمن . وكانت هذه الشهوة سبب ارتمائه فى أحضـان التقدميين والثوريين كى يدوى اسمه بين شبان الجيل الجديد . ولمـا كان غير متزوج ، فأولاد شقيقته يحفون به دائماً طمعاً فى ثروته . ولـكنه يعاملهم أسوأ معاملة وينعتهم بأقبح النعوت

ووجد أصحابنا الثلاثة التاجر جولوشكين فى مكتبه ، وقد التف فى عباءة طويلة ووضع بين شفتيه سيجاراً ضخما ويتظاهر بمطالعةإحدى الصحف . فلما دخلوا عليه قفز واقفاً . واندفع نحوهم ، واحتقن وجهه بالحماسة ونادى بأعلى صوته يطلب لهم المرطبات بسرعة ثم بعد أن ألقى بعض أسئلة عن الصحة والحالة قهقه ضاحكا من غير سبب وقبل أن يسمع الاجابة . وعلق على تقديم نجدانوف اليه بضجة كبيرة من الترحيب وهو يشد على يده بحرارة ويكاد يعانقه كأنه يعرفه من قبل . وراح بعد ذلك يحدث نجدانوف عن نفسه وعن جهوده الباركة فى سبيل الحركة وفى سبيل الطبقة الـكادحة التى كان يسميـها « البروليتاريا » ويكرر تلك الـكلمة كثيراً مزهواً بأنه يعرف كيف ينطقها

وبعد أن تناولوا المرطبات دخل رجل نحيف طويل العنق أشبه بمرضى السل فانحنى للجميع ثم اقترب من جولوشكين فأسر فى أذنه شيئاً . وعندئذ صاح بسرعة :

— دقيقة واحدة ! انى أيها السادة مضطر أن أعتذر اليكم . فهذا فازيا سكرتيرى قد أخبرنى الآن بنبأ يحتم على أن أفترق عنكم برهة . ولـكنى آمل أيها السادة أن تحضروا جميعاً لتناول الغداء على مائدتى فى الساعة الثالثة . وبعد ذلك سيتسع أمامنا الوقت كما نشاء فنتحدث بحرية . وبهذه المناسبة أعلن تبرعى بألف روبل للحركة

ونهض فرافق ضيوفه الى الباب وهو يكرر بصوت مرتفع انه سينتظرهم فى الثالثة . فكان ماركيلوف هو وحده الذى أجابه شاكراً . أما سولومين فقال بمجرد أن صاروا وحدهم فى الشارع أنه يريد أن يعود الى المصنع فوراً لأنه لا فائدة من تضييع الوقت مع رجل كهذا أشبه بالعنزة المشهورة التى لاتدر لبناً وليس لها صوف ، فقال ماركيلوف :

— بل للعنزة صوف . فقد وعدنا بألف روبل . وإن كنت لا تحبه فاعلم

اننا لا يمكن أن ندقق فى هذه المرحلة فى اختيار الأنصار . وأرجو منك أن تبقى معنا . وسنقضى الوقت الى الساعة الثالثة فى الحديقة العامة ، فالجو بديع !

وأمام إلحاح ماركيلوف أذعن سولومين وذهب الثلاثة الى الحديقة وهناك التقوا بصديق قديم من أصدقاء موسكو هو الأعرج باكلين ، وكان بالبلدة فى زيارة لبعض ذوى قرباه فقضوا معه الوقت الى الموعد المضروب

□

ورغب باكلين أن يذهب معهم الى بيت جولوشكين . وقد شاقه بعد الذى سمعه عنه أن يعرفه . وقابل جولوشكين الشبان الأربعة بضجته المألوفة وضحكاته الرنانة . وأظهر سروراً كبيراً لحضور باكلين والتعرف اليه

— لم أكن محتاجاً أن أسأل هل هو منا أم لا . إن سيماه على وجهه

ثم بدأ يتحدث عن الحاكم . وكيف استدعاه لزيارته وصدع رأسه بحديث مؤسسة خيرية يريد منه . انة لها . ولم يفهم الشبان الأربعة ما الذى سر التاجر أكثر ، هل هو تشرفه بمقابلة الحاكم ، أم سنوح الفرصة له كى ينال منه أمام هؤلاء الشبان التقدميين

— والآن أيها السادة هيا بنا الى المائدة !

وكان باكلين يبدو ملتذاً جداً بما يراه ويسمعه من أحوال وأطوار ذلك الشخص . وظن رب البيت ان الأعرج معجب به . وهو لايدرى أى تعليقات مسمومة كان يهمس بها فى أذن صديقه القديم نجدانوف بين الحين والحين

ولم يلبث نجدانوف أن سئم هذا الجو الذى كانت الأحاديث تجرى فيه رنانة بقصد الدعاية أو التظاهر ، فقال بكل جد :

— لقد حان الوقت أن ندع اللعب بالألفاظ . فهذا وقت العمل لا وقت الكلام ! ونحن والحمد لله قمنا بالتمهيد للحركة بحيث نستطيع أن نقف على أرض صلبة

ويظهر ان الشراب كان ثقيلا ، لأن نجدانوف بدأ فى الحال يناقض نفسه بقوله :

— ولكن أرجو منكم أن تدلونى أولا على العناصر التي يمكن الركون اليها فى القيام بحركة جدية ! إن مجتمعنا فيما أرى لاينظر الينا بعين الثقة . وسواد الشعب ما زال غارقاً فى الجهالة !

ولم يجبه أحد . لأن كل واحد كان مشغولا بنفسه بعد أن دار الشراب برأسه . وأخذ ماركيلوف يصيح بغضب وهو يدق المائدة بيده :

— يجب أن نحذر من المعتدلين !

فهز سولومين رأسه وقال :

— كان المعتدلون يعملون حتى الآن لحساب الطبقات العليا . ونحن يجب أن نتجه الى الطبقات الدنيا !

وعندئذ قفز جولوشكين واقفاً على قدميه ، وألقى إلى الوراء برأسه المحتقن ، وقد اختلطت فى محياه الحماسة بالنشوة الحيوانية وصاح :

— مرحى مرحى ! انى أعلن تضحيتي بألف أخرى . انهض الآن يافازيا وهات المبلغ . عده جيداً لكى لا تخطىء

ونهض فازيا لينفذ أمر سيده . وإذا باكلين الذى كان أكثر الجميع افراطاً فى الشراب وقد نهض شاحب الوجه يتصبب جبينه عرقاً ولوح بذراعيه فى الفضاء ثم أخذ يصيح بصوت متضعضع من مفعول الخمر :

— التضحية ! التضحية ! ياله من استعمال مبتذل لكلمة مقدسة ! أيتها التضحية ! اعلمى انه ما من مخلوق بشرى يستطيع حقاً أن يرقى الى مستواك السامى .. ما من انسان يقدر أن ينهض بوصاياك ! أو على الأقل ليس هذا ممكناً لأى واحد من الحاضرين هنا الآن ! وهذا الأحمق ، زكيبة النقود ! انه يفتح فمه القذر ويتقيأ منه بضع روبلات ، ثم يتشدق بكلمة التضحية ! ها ها ! وينتظر أن يسمع منا الثناء ، وأن نضع على هامة هذا الوغد إكليلا من الغار !

وإما أن يكون جولوشكين لم يسمع ماقاله باكلين ، أو يكون قد سمعه ولم يفهمه ، فظن كلامه نوعاً من النكتة ، لأنه علق على ذلك بقوله فى مباهاة :

— نعم ياعزيزى ! ألف روبل كاملة ! ان جولوشكين رجل يفى بوعده دائماً !

ثم ضرب يده فى جيبه وأخرج رزمة من الأوراق المالية وصاح :

— هاهى عنافيرها ! افعلوا بها ماتشاؤون ! مزقوها إن شئتم ! ولكن لا تنسوا أن تذكروا وأنتم تمزقونها صديقكم جولوشكين !

ومد نجدانوف يده فتناول رزمة النقود التي ألقاها جولوشكين على مفرش المائدة الملطخ بالخمر الأحمر

ولما كان الحديث قد انتهى ، وكذلك الطعام ، ولم يعد هناك مايقال استأذنوا

فى الانصراف ثم تناولوا قبعاتهم وخرجوا

وشعروا جميعاً بالدوار ، ولاسيما باكلين ، عند ماصاروا فى الهواء الطلق ، فسألهم باكلين وهو يترنح :

ــ الى أين أنتم ذاهبون الآن ؟

فقال سولومين :

ــ أما أنا فذاهب الى بيتى

ــ أتعود الى المصنع الآن ؟

ــ أجل ، سأعود الآن على قدمى برغم ظلام الليل .. المشى بالليل جميل والمسافة كلها لا تزيد على أربعة أميال تحتملها ساقاى بسهولة . طاب ليلكم

ثم زرر سولومين معطفه وفارقهم . فسأل باكلين نجدانوف فأجاب :

ــ انى عائد مع ماركيلوف . سنركب عربته الى داره

ــ إذن مع السلامة . وأرجو أن تغفرا لى مابدر منى وأنا سكران

ثم نظر الى ماركيلوف وحياه تحية عسكرية فى سخرية ، ودار على عقبيه وراح يعرج مترنحاً نحو بيت أقربائه . واتجه نجدانوف وماركيلوف الى الحان التي تركا فيها عربة ماركيلوف وجواديه ، فأمرا باعدادها وجلسا يستريحان وبعد نصف ساعة كانت العربة تخترق بهما الطريق الى ضيعة ماركيلوف



حديث الحب

كانت السماء ملبدة بغيوم منخفضة . ومع أن النهار كانت فيه بقية تسمح برؤية الطريق إلا أن هـذه الغيوم جعلت الرؤية متعذرة ، وأضفت جواً من الكآبة . وكانت الرياح تهب فى عنف محملة برائحة القمح والمطر . حتى لقد خشى نجدانوف أن يضلا الطريق وأعرب عن ذلك لماركيلوف ، فأجابه قائلا :

— لا أظن . لأنه لا تقع للمرء مصيبتان فى يوم واحد !

— ولـكن ماذا كانت المصيبة الأولى إذن ؟

— اننا أضعنا يوماً فى لا شىء . أليس لهذا أهميته وخطره ؟

— طبعـاً وما كان ينبغى لنا أن نسرف هكذا فى احتساء الخمر عند جولوشكين الأبله

— لم أكن أفـكر فى جولوشكين فقد حصلنا منه على بعض المال على كل حال . ولهذا لا أعتبر زيارتنا له هى المصيبة التى أشرتَ اليها

— ما الذى تعنيه إذن ؟..

فلم يجبه ماركيلوف ، بل انزوى فى ركن العربة . ولم يستطع نجدانوف أن يتبين وجهه . بيد أنه كان يشعر منذ الصباح أن هناك شيئاً غير عادى يقلقه . وفجأة قال ماركيلوف بغضب :

— انك يا ألـكساى ديمتريتش لا تؤمن بقضيتنا

— أخشى أننى لا أفهمك

فضحك ماركيلوف ضحكة مغتصبة وقال :

— اذن أنت لا تفهمنى ! ها ها ها ! إننى أعرف كل شىء يا سيدى العزيز ! أعرف مثلا من التى كنت تطارحها الهوى بالأمس ؟ من التى استوليت على قلبها بجمال منظرك ومعسول ألفاظك ! أعرف من هى التى تدعك تتسلل الى مخدعها فى جوف الليل ، بعد الساعة العاشرة مساء بالتحديد

وفى هذه اللحظة أنقذ الحوذى الموقف إذ صاح فجـأة وهو يلتفت ا
ماركيلوف :

— امسك اللجم يا سيدى من فضلك . فسأنزل لأرى ماذا حدث .
يظهر أننا ضللنا الطريق . وأرى هنا أخدوداً ننحدر فيه

وكانت العربة فى الواقع تكاد تنقلب على أحد جانبيها . فتناول ماركيلو
اللجم ، لكن الموقف لم يشغله عن الاندفاع فى حماسة وهو يسب ويلعن :

— لا ألومك يا ألكساى ديمتريتش فكل ما هناك أنك استفدت م
الظرف لمصلحتك الشخصية وهكذا أصبحت مشغول القلب بقضيتنا فحسب !

— بدأت أفهم الآن علة قلقك واستيائك ... لقد كنت تتجسس علينا
وأنا أعرف من كانت جاسوستك التى لم تضيع وقتاً فى إرسال تقريرها إليك

وفى هذه اللحظة برز الحوذى من الظلام وهو يصيح :

— وجدت الطريق . فقد درت شمالا بوجه الخطأ . ولكن لا بأس
وسنكون فى البيت بسرعة . اللجام من فضلك يا سيدى

ثم قفز إلى مقعده وخرج بالعربة من المأزق بأمان . فقال نجدانوف :

— بعد هـذه الاهانات التى وجهتها إلى ، تستطيع أن تقدر طبعاً أنى
أرفض أن أقضى الليلة عندك . ولهذا أرجو منك ـ برغم ما فى توجهى بالرجا
إليك من مضاضة ـ أن تتفضل فتعيرنى عربتك بمجرد الوصول إلى البيت كى
تنقلنى إلى البلدة . وهناك سأبيت فى خان ، وسوف أجـد فى الصباح وسيلة
للوصول وحدى . وبعد ذلك سأتصل بك طبعـاً ، وبطريقة لا أشك أنك
تتوقعها

ولم يجب ماركيلوف على الفور . ثم صاح فجأة بلهجة اليائس :

— يا نجدانوف ! بحق السماء تعال معى إلى البيت ، ولو لتتيح لى الفرصة
كى أركع تحت قدميك طالباً الغفران .. نجدانوف ! اغفر لى زلتى وامسح من
ذاكرتك كلماتى الرعناء . . ليت أحداً يدرك مقدار التعاسة التى أحس بها !..

ثم ضرب ماركيلوف صدره بيده ، وتأوه وهو يستطرد :

— يا نجدانوف ! كن كريماً ! وأعطنى يدك ! قل إنك تغفر لى !

فمد نجدانوف يده على مضض ، وشد ماركيلوف عليها بحرارة وعنف حتى
كاد يصرخ . وفى هذه اللحظة وقفت العربة أمام باب الدار

وبعد ربع ساعة ، قال ماركيلوف لنجدانوف وهما فى حجرة المكتب :

— اصغ إلىّ يا نجدانوف ! لقد قلت لك يوماً إننى نزلت باختيارى عن كل متاع الحب وسعادته كى أستفرغ جهدى كله لخدمة القضية . ولكن هذا لم يكن صحيحاً يا نجدانوف ! لم يكن عندى ما أضحى به فى ذلك الباب . لأن الحب لم يعرض على يوماً سعادته بل كان يضن بها ! لقد ولدت سىء الطالع وسأستمر كذلك سائر أيام حياتى . ولما لم أجد فائدة لنفسى ترجى فى طلب السعادة حولت جهودى الى شىء آخر . فاذا استطعت ياعزيزى نجدانوف أن تجمع بين الحسنيين فتحب وتكون محبوباً ، وتخدم القضية فى الوقت نفسه ، فأنت انسان مجدود . ولم يكن اتهامى لك بخيانة القضية إذ فكرت فى الحب إلا من قبيل الغيظ والحسد . هذه هى الحقيقة ، فاغفر لى !

وكان ماركيلوف يقول كل هذا الكلام بهدوء تام ، وهو جالس على مقعد منخفض وقد تدلى ذراعاه على جانبيه ووقف نجدانوف أمامه تائها فى جو كالحلم ، ويحاول عبثاً أن يشعر بالسعادة التي يصفها له ماركيلوف الذى استطرد قائلا :

— لقد خدعت مرة فى صدر شبابى . كانت فتاة ممتازة مرموقة ، ولكنها نبذتنى . ومن أجل من ؟ من أجل ألمانى ! من أجل ضابط ! وماريانا ...

ثم توقف . فهذه هى المرة الأولى التي نطق فيها باسمها ، فأحس كأنه يحرق شفتيه فتروى قليلا ثم قال :

— أما ماريانا فلم تخدعنى . لقد أخبرتنى بوضوح انها لا تهتم بى . انها لم تجد فى شيئاً يمكن أن يثير اهتمامها . ولهذا وهبتك نفسها . وهى طبعاً تملك كل الحق والحرية فى ذلك

فهتف نجدانوف قائلا :

— تمهل لحظة .. ماذا تقول ؟ ما الذى تعنيه أو تلمح اليه بقولك وهبتك نفسها ؟ أنا لا أدرى بالضبط ماذا أنبأتك به شقيقتك . ولكنى أؤكد لك ...

— لم أكن أعنى وهبتك نفسها جسدياً بل روحياً ومعنوياً ...

وبدا عليه انه استاء جداً من استفسار نجدانوف ، بيد انه أردف :

— وما كانت لتستطيع خيراً مما فعلت . أما عن أختي فهى طبعاً لا ترمى الى إيلامى . وبفرض ان المسألة لاتهمها ، فهى ولاشك تكرهك وتكره ماريانا كذلك ولكن ثق انها لم تبلغنى كلمة واحدة بسوء قصد أو خلاف الواقع .

ولندع أختي الآن جانباً ، فكفانا حديثاً عنها

وجعل نجدانوف ينظر الى ماركيلوف بدهشة . فأشاح الآخر بوجهه ، وجعل ينظر الى ركن الحجرة وهو يعض شفتيه وشاربه حتى يظنه الناظر يمضغه. ثم بعد قليل ضرب ركبته بيده وصاح :

— أجل . لقد عزمت . ولن أرجع عن عزمي !

ثم نهض وجر ساقيه جراً الى حجرة نومه . ومن هناك عاد برسم يمثل ماريانا في اطار مذهب ، وقال لنجدانوف بصوت حزين ولكنه ثابت :

— خذ هذه الصورة . لقد رسمتها لها بيدي منذ مدة . ومع اني لا أحسن الرسم جداً ، إلا انها تشبهها فيما أظن . خذها يا ألكساي . فهي هدية مني اليك ، ومع هذه الصورة أمنحك كل ما كان لي من حقوق . والواقع انه لم تكن لي حقوق أبداً ... ولكنك تدرك ما أعنيه ! اني أعطيك كل شيء

وكف ماركيلوف عن الكلام وأخذ صدره يعلو ويهبط بشكل ملحوظ ثم قال :

— خذها . أما تزال غاضباً مني ؟ إذن خذها . فلا نفع لها عندي الآن

فأخذ نجدانوف الصورة . وهو يشعر بشيء غريب يهصر قلبه . وخيل اليه ان لا حق له في اقتناء هذه الهدية . وقال لنفسه مؤنباً :

— ماذا ؟ ان الذي في يدي الآن هو حياة رجل بأسرها !

قد أدرك في هذه اللحظة مدى التضحيات التي يقدم عليها ماركيلوف . ولكن هل يليق أن يرد اليه الصورة ؟ كلا ! انها تكون اهانة بالغة

وحول نجدانوف نظره عن ماركيلوف الذي عاد الى مضغ شاربه . وفي هذه اللحظة دخل خادم يحمل شمعة ، فأجفل ماركيلوف وقال :

— آن أن نأوي الى فراشنا يا ألكساي . وفي الصباح تحملك العربة

وأوى نجدانوف الى حجرته وهو يشعر بتعاسة وحزن . وكانت رأسه تكاد تتحطم من تأثير الشراب . وجعلت الصورة تحرقه حتى فكر أكثر من مرة أن يطرق باب ماركيلوف ويردها اليه . وفي الصباح ودعه ماركيلوف عند الباب حين ركب العربة ولكن في فتور شديد . ومع ذلك خيل الى نجدانوف انه كان يريد أن يقول له شيئاً هاماً ، حين انطلقت الجياد

لم تخبر فالنتينا ميهايلوفنا زوجها بالا كتشاف الذى وقعت عليه . وا كتفت بتوجيه بضع كلمات الى ماريانا نفسها فى حضور خالها ، وشفعت الكلمات بابتسامة ذات معنى . كما انها ندمت على انهـا كتبت الى شقيقها . بيد انها على العموم كانت راضية عما أحدثه ارسال الخطاب من راحة نفسية لديها فى حينه

ولمح نجدانوف ماريانا ساعة الغداء فى قاعة المائدة لمحة خاطفة . فخيل اليه انها ازدادت هزالا وشحوباً . بيد ان النظرة الفاحصة التى رمقته بها بمجرد دخوله القاعة نفذت الى قلبه

وأما فالنتينا ميهايلوفنا فكانت تنظر اليه طول الوقت ، وكأنهـا تريد أن تهنئه . وفى الوقت نفسه كانت تدرس وجهه لتعرف هل أطلعه ماركيلوف على خطابها أم لا . وأخيراً استقر رأيها على انه أطلعه على ذلك الخطاب أو فاتحه فى شأنه

ولما علم سيبياجين ان نجدانوف زار المصنع الذى يتولى ادارته سولومين، انطلق يسأله عن المصنع والمدير والادارة أسئلة شتى . ثم لم يلبث أن اقتنع من اجابات الشاب انه لم ير شيئاً هناك ، فعـاد الى السكون وكأنه يلوم نفسه لأنه توقع أن يعرف شيئاً عملياً من شخص مثل نجدانوف لا خبرة لديه !

وعند ماهمت ماريانا بمغادرة الحجرة ، استطاعت ان تقول لنجدانوف همساً :

— انتظرنى فى الغابة عند نهاية الحديقة . سأذهب الى هناك بأول فرصة

وبطبيعة الحال بادر بالتسلل الى ذلك الموضع . ولم يمكث هناك سوى لحظات حتى رآها واقفة أمامه بوجه يفيض بالترحاب وبريق من الحنـان يفيض من عينيها وابتسامة سرور تتراقص على شفتيها . فتشبث باليد التى بسطتها اليه ، بيد انه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة . وهى أيضا ظلت صامتة . فقد أسرعت فى الحضور فلهثت أنفاسها . ولـكن كان واضحا ان سرورها كان عظيما لما لمسته من فرحه بلقائها . وكانت هى التى بدأت الـكلام ، قالت :

— والآن خبرنى ماذا قررتم

فاستولت عليه الدهشة لهذا السؤال وقال :

— ماذا قررنا ؟ وهل كان من الضرورى أن نقرر شيئا فى الوقت الحاضر ؟!

— أنت تدرى ماذا أعنى . خبرنى عن موضوعات حديثكم . ومن قابلتم.

وهل قابلتم سولومين ؟ قل لى كل شىء . فانى مسرورة جداً برؤياك ! كدت أظن ان هذين اليومين لن ينتهيا . وقد ثبت لى تقريبا ان فالنتينا ميهايلوفنا هى التى كانت تسترق السمع وراء الباب فعلا

— هذا صحيح . فقد كتبت الى ماركيلوف عن ذلك

فصمتت ماريانا لحظة ثم احمر وجهها ، لا خجلا بل استنكاراً وقالت :

— انها امرأة شريرة . ولكن لندع هذا الآن وهات أخبارك

وراح نجدانوف يتحدث وماريانا تصغى له وهى كالصنم . بيد انها كانت تستوقفه لتستوضحه مايستغلق على فهمها . واهتمت على الخصوص بمعرفة آراء سولومين . وأدهشها قليلا أن تسمعه يلح فى الثناء على ماركيلوف واخلاصه . فوضعت يدها على كتفه برفق . فتناول تلك اليد وقبلها لأول مرة . فضحكت ضحكة يسيرة ثم شردت قليلا وسألته :

— وهل أطلعك ماركيلوف على خطاب فالنتينا ميهايلوفنا ؟

— أجل ...

— وماذا كان وقعه عنده ؟

— إنه أنبل رجل يحمله وجه الأرض !

وأوشك أن يروى لها كيف أهدى اليهصورتها التى رسمها بيده . ولكنه عقل لسانه فى اللحظة الأخيرة . فعادتماريانا تسأل عن القرارات التى اتخذت:

— لقد قلت لك ياعزيزتى اننا لم نقرر شيئا حتى الآن . يجب أن ننتظر مدة أخرى كما تعلمين الى أن تأتينا الأوامر

— ممن ؟...

— من فاسيلى نيقولايفتش . ثم يجب أن ننتظر أيضا الى أن يعود سترودوموف من مهمته التى ستستغرق وقتا آخر

— ولكن صف لى فاسيلى نيقولايفتش هذا ...

— أنا شخصيا لم أره إلا بضع دقائق على دفعتين ، وهو قائدحركتنا الذى يجب أن نطيعه . وهو قصير القامة متين البنية غليظ الوجهبارز عظام الوجنتين ، ولكن له عينين براقتين تشعان ذكاء

— وطريقة كلامه ؟

— انه لا يتكلم ياعزيزتى . بل يأمر !

— ولماذا جعلتموه قائدكم ؟

— لأنه رجل قوى الطبع لايذعن لأى انسان . الجميع يخافونه ..!

— وسولومين ؟

— انه ليس وسيما . ولكن وجهه يدل على الصفاء والصراحة كوجوه تلاميذ المدارس من أبناء الناس الطيبين

فنظرت اليه ماريانا مليا ثم قالت :

— وأنت أيضاً لك وجه يدل على الأمانة والصفاء وأظن عشرتك تطيب

فتأثر نجدانوف جداً ورفع كفها الى فمه وقبله مرة أخرى

— كفى . والآن أرجو أن تغفر لى شيئاً فعلته فى غيابك . لقد دخلت حجرتك ووجدت هناك كراسة فيها أشعار فوق المكتب . وأصارحك انى لم أستطع مقاومة الاغراء فقرأت محتوياتها . فهل هى من نظمك ؟

— أجل . ولكن يكفى كى تعرفى مقدار ثقتى فيك انى لم أكد أشعر بالغضب لأنك فعلت ذلك . لأنى أخفى هذه الأشعار عن كل انسان . ولكن خبرينى ماذا نصنع ، فما أظن ان خالك وزوجته سيبقيانى هنا طويلا

— نهرب معاً . ونكدح فى سبيل اللقمة بأيدينا إن لزم الأمر

— أنا لا أستحقك ياماريانا !

فارتعدت جميع أوصالها وقالت :

— كفى هراء ! لقد ارتبط مصيرنا . والآن يجب أن أعود وإلا شرعت فالنتينا ميهايلوفنا تبحث عنا . وإن كنت شخصياً أعتقد انها نفضت يديها منى يائسة من اصلاح حالى . فأنا فى نظرها النعجة السوداء التى يبتلى بها الله القطيع الأبيض ...

— بربك لا تقولى شيئاً من ذلك !

— الحقيقة انها تغار منى . والعامل الأساسى فى غضبها انها لم تستطع أن تستدرجك لتركع عند قدميها كالآخرين . ولكن هذا كله لا قيمة له . ان أهم ما فى الموضوع انى لم أعد أستطيع البقاء فى هذا البيت . بل يجب أن أفر

— تفرين ؟

— نعم . لأنك أنت كما تدرك تماماً لن تمكث هنا طويلا . ولا بد منذ الآن أن أرتب خطة هربى وأفكر فى الحرفة التى أحترفها كى نشق طريقنا جنباً

الى جنب . انك ستأتى معى . أليس كذلك ؟

— الى أقصى الأرض ياعزيزتى ...!

والواقع انه فى هذه اللحظة كان حرياً أن يذهب معها فعلا حيث شاءت من غير أن يلتفت وراءه مرة واحدة

فأدركت ماريانا حقيقة شعوره ، فتنهدت بارتياح وامتنان ، وقالت له :

— إذن خذ يدى ياعزيزى ولكن لاتقبلها . اضغط عليها فقط شأن الزميل أو الصديق ، بحرارة ... هكذا ..!

ومشيا الى القصر جنباً الى جنب صامتين يفكران فى سعادتهما . وكان العشب يداعب أقدامهما ، والبراعم الصغيرة تهتز من حولهما . وهما ينظران بسرور الى الأضواء والظلال وهبات النسيم ، وكأن كل ماحولهما مهرجان أقامته الدنيا للاحتفال بحبهما الوليد



سولومين .. والجبيبان

بعد خمسة أيام من عودة سولومين إلى مصنعه ، دخلت الفناء عربة صغيرة أنيقة تجرها أربعة جياد مطهمة ، ويرافقها ياور فى كسوة رسمية خضراء ، نزل منها وأدخله « بافل » تابع سولومين الى الجناح الخاص ، حيث سلم اليه مظروفاً مختوماً من لدن « سعادة بوريس اندرايفتش سيباجين »

وفى هذه الرسالة التى يفوح منهـا عطر انجليزى خفيف غالى الثمن ، والمكتوبة بخط السيد نفسه لا بخط السكرتير ، يبدى سيباجين اعتذاره للتوجه بالخطاب الى سيد لا يعرفه شخصياً ، ولكن عذره فى ذلك أنه طالما سمع به وسمع عنه الكثير من الثناء . وهو لهذا يتوجه الى السيد سولومين برجاء التفضل بزيارته ، لأنه يريد أن يستفيد من مشورته وآرائه الفنية الناضجة فى موضوع من موضوعات الصناعة ينوى أن يشرع فى تأسيسه

وعلى أمل قبول السيد سولومين هذه الدعوة ، أرسل اليه عربته الخاصة لتنقله الى الدار . وإن لم يتمكن من ذلك فى اليوم نفسه فليس عليه سوى أن يعين الوقت الذى يوافقه ، فتأتى العربة نفسها لتقله

وفى ختام ذلك الخطاب دعوة للتكرم بتناول الطعام عائلياً ، وبغير الملابس الرسمية . . .

ومع هذه الرسالة سلم الحاجب الى سولومين رسالة أخرى من نجدانوف ، كانت فى الواقع مذكرة صغيرة ليس فيها إلا هذه الكلمات :

— أرجو منك أن تأتى ، فالحاجة اليك ماسة وقد تغدو ذا نفع كبير ، ولا أعنى ذلك طبعاً بالنسبة للسيد سيباجين . . .

فلما فرغ سولومين من تلاوة خطاب سيباجين قال لنفسه :

— ما كنت لألبى هذه الدعوة لو اشترط لها الملابس الرسميـة ، فلست

أملك شيئاً من هذا القبيل . . . ثم لماذا أذهب إلى هناك إطلاقا ؟ تضييع وقت !

ولـكنه ما ان قرأ رسالة نجدانوف حتى غير رأيه وقال للحاجب :

ــ سآتى معك بعد أن أبدل ثيابى مباشرة . . .

ثم نادى تابعه بافل فأسر اليه شيئاً ، ومر فى أرجاء المصنع ، واستبدل بثياب العمل معطفاً أسود نظيفاً ، واستقل العربة الأنيقة

▭

وفى الوقت الذى كان فيه سولومين فى طريقــه الى ضيعة سيباجين ، كان سيباجين جالساً فى قاعة الاستقبال يقرأ كتيباً سياسياً ويتناقش فى مضمونه مع زوجته ثم صرح لزوجته أنه أرسل يستدعى سولومين على نية إقناعه بترك العمل فى مصنع القطن وتولى إدارة مصنعه الذى أمسى فى حالة سيئة جداً ، ويحتاج إلى إعادة التنظيم

ولم يخطر لسيباجين ظل من الشك فى أن سولومين ربما لم يوافق على هذه الخطوة ، مهما كان الاغراء المادى . واعترضت زوجته قائلة :

ــ ولـكن مصنعنا مصنع ورق وليس مصنع قطن

ــ لا أهمية لذلك . فالمصنعان يدوران بالآلات ، وهو ميكانيكى

ــ ولـكن لنفرض أنه اخصائى فى نوع معين . . .

ــ أولا ليس هناك اخصائيون فى روسيا . وثانياً هو ميكانيكى !

فابتسمت فالنتينا ميخايلوفنا وقالت :

ــ كن على حذر يا عزيزى فقد فشلت وجانبك التوفيق مع الشباب مرة من قبل . . . فلا تتورط فى غلطة أخرى . . .

ــ أتشيرين الى نجدانوف ؟ لا أعتقد أننى أخطأت التقدير بالنسبة اليه . فقد كان معلماً جيداً ناجحاً لـكوليا . . .

فابتسمت ونظرت اليه نظرة ذات مغزى وقالت :

ــ افتح عينيك يا عزيزى !

ــ هل تعنين أنه وماريانا . . ؟

ــ قلت لك افتح عينيك !

فقطب جبينه وقال :

— سنتحدث فى هذا الموضوع فيما بعد وإنما المهم عندى الآن هو أن هذا المهندس سولومين ربما شعر بالنفور للغربة هنا ، فهو كما تعلمين لم يتعود حياة المجتمعات فعليك أنت أن تخلصيه من هذا الشعور بحيث يأنس الينا ، بلباقتك المعهودة

— لا تقلق من هذه الناحية . وسأبذل كل جهدى

▭

ولكن اتضح أن كل هذا لم تكن هناك حاجة اليه . لان سولومين لم يظهر عليه أى أثر للضيق أو الغربة ، بل كان على سجيته جداً

وما ان أعلن قدومه حتى هب سبياجين واقفاً وأمر أن يدخل فوراً ، وأسرع هو نفسه إلى الباب حتى كاد يصطدم به ثم صافحه بحرارة وهو يقول له بأعذب لهجاته :

— كم هو جميل منك أن تتفضل بالحضور . . .

ثم قاده ليقدمه إلى فالنتينا ميخايلوفنا قائلا :

— اسمحى لى ياعزيزتى أن أقدم اليك أبرع مهندس صناعى فى منطقتنا ... « فاسيلى فيدوسايتش سولومين »

فنهضت مدام سبياجينا ، وقد شرعت فيه عينيها الساحرتين ، وابتسمت له كأنما هو صديق قديم ، ومدت اليه يدها البضة فى دلال

وشرع سبياجين بعد ذلك يعرض عليه المرطبات والسيجار ، فاعتذر بحزم مهذب ، وأكد أنه لا يريد شيئاً ، وأنه لا يشعر بتعب من الرحلة ، فسأله سبياجين بلهفة :

— إذن هل يمكن أن نزور المصنع ؟

— فوراً . . إن أمكن

— هل تركب أم تفضل المشى ؟

— هل هو بعيد جداً ؟

— بعد نصف ميل تقريباً

— إذن لا لزوم للركوب

فطلب سبياجين قبعته وعصاه وانطلقا معاً فى طريق المصنع

كان معظم العمال يعرفون سولومين شكلا ، فانحنوا له محيين بل انه كان يعرف أسماء نفر منهم لخيامم بمودة . . .

وسرعان ما فطن سولومين الى الحقيقة القاطعة ، وهى أن المصنع يدار على طريقة سيئة جداً ، وكذلك الآلات من طراز عتيق جداً . فكأن المال الذى ينفق عليه يقذف به إلى الطريق فيذهب عبثاً

وظل سبياجين يحملق فى وجه سولومين عسى أن يقرأ فى صفحته مايفكر فيه . فلما لم يفلح سأله على استحياء عن نظام المكان ، فقال :

ــ إن النظام لا غبار عليه . ولـكنى أشك كثيراً فى إمكان الانتفاع من المصنع تجارياً بأى حال من الأحوال . . .

فانزعج سبياجين لهذا الحكم وقال مع ذلك :

ــ أرجو منك أن تصارحنى برأيك بدون مداراة وأن تذكر لى ما تراه السبب الجوهرى فى نقص الانتاج وعيوب الأدوات . . . حتى نتمكن من تلافيها على أساس سليم فى المستقبل بناء على مشورتك

ــ لست مختصاً فى مصانع الورق ، ولـكنى أستطيع أن أقرر لك شيئاً ، هو عدم إيمانى بقدرة الارستقراطيين على إدارة المصانع !

وفى هذه اللحظة كان كولومزيف قد حضر ، فقال :

ــ وهل تعتبر الصناعة مزرية بالارستقراطية ؟

فابتسم سولومين ابتسامته العريضة الهادئة وقال :

ــ كلا طبعاً . وماهو المزرى فى الصناعة ؟ وحتى لو كانت مزرية ، فلست أظن الأرستقراطيين يتحرجون كثيراً . . .

ــ ماذا تعنى ؟ . .

ــ كل الذى أعنيه أن الأرستقراطيين لم يألفوا مثل هـذا العمل لأنه يقتضى إلماماً بالتجارة وأصولها ، وتمريناً فنياً عليها . والأرستقراطيون لا يفقهون ذلك و لا صبر لهم عليه ولهذا تراهم يفشلون فى المصانع التى يؤسسونها فى كل مكان من أنحاء البلاد ، ويسقطون فريسة سهلة للتجار إن عاجلا أو آجلا . وهذا مما يؤسف له جداً ، فالتجار مصاصو دماء من أسوأ درجة ... ولـكن لا حيلة فى ذلك على ما أرى ... فهذه طبيعة الموقف

— إن من يسمعك تقول هـذا الـكلام يقع فى روعه أن المسائل المالية تسمو على مدارك طبقتنا النبيلة ...

— كلا ! بل هذه الطبقةأهلها أساتذة فى شئون المال ، فلا أحد يضارعهم فى انشاء شركات سكة الحديد ، أو البنوك ، أو الحصول على اعفاء خاص من ضريبة عامة ... ولهذا يحوزون ثروات طائلة بسرعة . ولـكن هذهالمشروعات الصناعية لا المالية البحتة ، كانشاء مصانع للقطن أو الورق ، شىء آخر يحتاج الى دراية من نوع آخر ...

فسكت كولومتزيف ، لأنه كانمن طبقة المرابين وأصحاب البنوك . ولـكنه فى الواقع كان يغلى من الغيظ ، ولاسيما للهجة سولومين الهادئة الواثقة المستخفة. بيد أنه آثر عدم الاشتباك معه ، مراعاة لمصلحة سيپياجين وبناء على توصيات مدام سيپياجين

وتدخل سيپياجين فى الحديث قائلا :

— عفوك يافاسيلى فيدوتتش . ان ماتقوله قد يكون صحيحاً فيما سلف من العهود ، حينما كانت للنبلاء امتيازات ، وكان لهم وضع يختلف كلية عن وضعهم الحالى . أما الآن ، وبعد أن حدثت اصلاحات شتى وأصبحنا فى عصر صناعى حقاً ، فلماذا لايتحول النبلاء الى الصناعة ؟ ولماذا يستعصى على فهمهم ما يقدر على فهمه أى تاجر سوق غير متعلم ؟ ولا سيما ان النبلاء لدينا لا يمكن وصفهم بالجهل ، بل هم فى الغالب مثقفون ، ويمكن اعتبارهم ممثلى الطبقة المستنيرة

— السبب ياسيدى هو فى عقليتهم ...

— من حيث ؟...

— من حيث انهم مطبوعون على البيروقراطية ...

وعندئذ لم يتمالك كولومتزيف نفسه فصاح :

— لا شك انك لاتعنى ما تقول ياسيد سولومين !.

— من قال لك هذا ياسيد كولومتزيف ؟ انى أعنى دائماً ما أقول !.

— إذن تفضل بالشرح والبيان !.

— ان كل ادارى بيروقراطى يعتبر دخيلا على العمل الفنى ، ولهذا اعتبر النبلاء دخلاء على الصناعة والتجارة ...

فقهقه كولومتزيف ضاحكا بصوت مرتفع وقال :

— ولكنى ياسيدى العزيز لم أفهم مرادك ...

— ربما فهمت ، لو حاولت الفهم بمجهود أكبر ...

ووجد سيياجين أن تدخله أضحى واجباً ، فتدخل بالفرنسية وهدأ الموقف، وعاد الثلاثة أدراجهم الى القصر ... وهناك خف كولومتزيف الى حجرة زينة مدام سيياجين ، وما أن دخل من بابها حتى هتف بها :

— لعمرى يافالنتينا ميخايلوفنا لست أدرى ماذا يريد زوجك أن يفعل !؟ لقد جلب لنا تقدمياً آخر ، كأنه لم يكتف بالتقدمى الأول ..! ولكن هذا الأخير أسوأ من الأول كثيراً ...

— ولكن لماذا ؟..

— انه ينادى بأقطع الآراء ! لقد أوشك أن يقنع زوجك بما يبشر به .. ولو سمعته وهو يخاطبه خطاب الند .. تصورى انه لم يقل له مرة واحدة « ياصاحب السعادة ! » ...

▭

بذل سيياجين كل ما فى وسعه لحمل سولومين على قبول ادارة مصنعه نظير زيادة كبيرة فى مرتبه ، بيد ان سولومين أصر على الرفض

— أرجو ياعزيزى فاسيلى فيدوتتش أن تقول على الأقل انك ستفكر فى الموضوع الى الغد . ولا تقل لا منذ الآن

— لن يقدم هذا ولن يؤخر . فسواء انتظرت الى غد أو بعد غد فلن أقبل عرضك . هذا هو رأيى الأخير

— فكر على كل حال الى الغد فلن يكلفك هذا شيئاً

ولم يجد سولومين بداً من الموافقة . ثم خرج من مكتب سيياجين وراح يدور بعينيه باحثاً عن قبعته . وإذا نجدانوف الذى لم تسنح له الفرصة قبل هذه اللحظة بالكلام معه يتقدم نحوه ويهمس على عجل :

— بحق السماء لا تذهب الآن . وإلا لن يتيسر لنا أن نتحدث !

فترك سولومين البحث عن قبعته . وانتهز سيياجين الفرصة فقال وهو يطل من باب مكتبه :

— ألا تقضى الليلة معنا ؟

— كما تشاء ...

وكانت نظرة الامتنان التي رمقته بها ماريانا وهي واقفة عند نافذة حجرة الاستقبال مدعاة لاثارة نواح شتى من التفكير لديه

وحتى هذه الزيارة كانت ماريانا تتخيل سولومين في صورة مختلفة جداً عن صورته الواقعية . ولما ألقت عليه أول نظرة خيل اليها انه شخص رخو الطباع. ولكنها حين أمعنت فيه النظر ، وأصغت للمزيد من حديثه ، ازدادت ثقتها به. فالثقة هي الشعور الذي أوحاه اليها . فهذا الرجل الهادىء الثقيل الحركات كان يوحي للانسان أن يعتمد عليه كأنه جدار من الصخر . فهو شخص لا يعرف كيف يكذب أو يحاور أو يخدع أو يخون . ولديه قدرة عظيمة على الفهم واستعداد كبير للمعاونة . وخيل لماريانا انه لا يبعث هذا الشعور في نفسها وحدها، بل في نفس كل شخص من الحاضرين

ولم يكن هذا الشعور راجعاً الى الموضوعات التي يتحدث فيها . إذ لم يكن يعنيها في كثير أو قليل موضوع المصانع والتجار . وإنما مرجع ذلك الى طريقة كلامه . وطريقة نظره فيمن حوله ، وأسلوب ابتسامته . فقد أعجبها ذلك كله كثيراً

أجل ان وجه نجدانوف أجمل من وجهه وأنضر وأندى على العين . بيد انه يوحي بالاضطراب والقلق ونفاد الصبر وضيق الصدر وقلة الحيلة وثبوط العزيمة . فالناظر الى نجدانوف يخيل اليه انه جالس على فحم متقد . وقد قضى فترة العشاء يحاول أن يتكلم فيفشل ويداري اضطرابه بضحك عصبي

أما سولومين فكان يبدو عليه شيء من الملل . ولكنه لا يشعر بضيق أو حرج . فهو مستقل تمام الاستقلال عما يدور حوله . وهذا هو السبب في ان ماريانا عولت على أن تستشيره في أمر حياتها ثقة منها في أصالة رأيه ونفاذ بصيرته . فأوعزت الى نجدانوف أن يستبقيه

ومرت السهرة بعد العشاء في أحاديث عن الصناعة . وكانت فالنتينا ميخايلوفنا تبذل كل ما في طاقتها لاستمالته . بيد ان فشلها الظاهر فت في عزمها . ورفض سولومين أن يلعب الورق ، فاختصرت السهرة وانصرف سولومين الى الحجرة التي خصصت له وهي أحسن حجرة للنوم في الطابق الثاني ، إذ يلحق بها حمام خاص على الطراز الانجليزي . وبعد قليل توجه الى حجرة نجدانوف الذي استقبله بالشكر الحار لأنه قبل رجاءه وبقي . فقال سولومين :

— لم تكن فى الأمر تضحية كبيرة . ثم انه لم يكن فى استطاعتى أن أخيب رجاءك بالذات

— ولم لا ؟

— لأنى أميل اليك كثيراً

ودهش نجدانوف وسر سروراً عظيما فى الوقت نفسه . وشد على يد سولومين بحرارة . ثم جلس سولومين فوق مقعد جلوساً عكسياً واتكأ بمرفقيه على ظهر الكرسى . وأشعل سيجاراً ثم قال :

— والآن خبرنى ماهو الموضوع ؟

— الموضوع وما فيه اننى أريد الفرار من هنا

— هل أفهم من هذا انك تريد أن تغادر هذا البيت ؟ ان كان الأمر كذلك فلست أرى ما يمنعك عنه

— لا أريد مغادرته ، بل الهرب منه.

— ولماذا ؟ أيريدون استبقاءك ؟ ان كنت قد أخذت نقوداً مقدماً ، فليس عليك إلا أن تعين المبلغ ، وسيسرنى كثيراً ...

— انك لم تفهمنى ياعزيزى سولومين . قلت أريد أن أهرب لا أن أرحل، لأنى فى الواقع لن أذهب وحدى

— مع من إذن ستذهب ؟

— مع الفتاة التى رأيتها هنا اليوم

— معها !؟ ان لها وجهاً مليحاً . هل أنتما متحابان ؟ أم أنتما قررتما المضى من هنا معاً لا لشىء إلا لأنكما تكرهان الاقامة هنا ؟

— بل نحن متحابان .!

— آه !...

ثم سكت سولومين برهة ، سأله بعدها :

— هل هى تمت بصلة القرابة لسيبياجين ؟

— نعم . ولكنها تشاركنى معتقداتى مشاركة تامة . وهى متأهبة لكل شىء

فابتسم سولومين وسأله بهدوء :

— وأنت يانجدانوف ، هل أنت متأهب ؟

فقطب نجدانوف حاجبيه قليلا وقال :

— ولماذا تسألني هذا السؤال ؟ سترى بنفسك حين يحين الوقت

— لست أشك فيك يانجدانوف، وإنما سألتك لأنه يخيل الى انه فيما عداك لا أرى أحداً على تمام الأهبة لليوم الفاصل

— وماركيلوف ؟...

— طبعاً ماركيلوف متأهب ! ولكن ماركيلوف ولد متأهباً

وفي هذه اللحظة طرق طارق الباب برفق ، ولكن بعجلة . ثم فتحه من غير أن ينتظر رداً . وكان هذا الطارق ماريانا التي اتجهت الى سولومين مباشرة وقالت بكل ثبات وهدوء :

— أنا متأكدة انك غير مندهش لرؤياي هنا في هذه الساعة من الليل . فلا شك انه قد أخبرك بكل شيء . فأرجو منك أن تعتبر انك ترى أمامك الآن فتاة مخلصة أمينة

فقال سولومين بكل جد :

— إني واثق من هذا كل الثقة !

وكان قد نهض من مقعده بمجرد دخولها . أما الآن فصافحها بحرارة واستطرد :

— لقد استرعى نظري ونحن على المائدة ما في عينيك من صراحة . وقد أخبرني نجدانوف بنواياكما . ولكن هل لي أن أسألك لماذا تريدين الفرار ؟

— يا له من سؤال ! ان نجدانوف لم يكتم عني شيئاً من أسرار كفاحكم . وأنا أعلم ان العمل العظيم على وشك البداية . فهل أبقى في هذا البيت حيث كل شيء يقوم على الخديعة والغش ؟ في الوقت الذي يتعرض فيه من أحبهم لأفدح المخاطر ؟

— هدئي من روعك . واجلسي من فضلك . وأنت أيضاً يانجدانوف اجلس . وأعيرني سمعك جيداً . إن كان هذا هو السبب الوحيد الذي من أجله قررت الفرار ، فلا حاجة إذن لفرارك في الوقت الحاضر . فالعمل العظيم سوف لا يبدأ بالسرعة التي تتصورينها . فيجب النظر الى المسألة بمزيد من الحذر والتأني . فمستقبل الوطن لاينبغي أن يفصل فيه برعونة

— ولكني لم أعد أطيق البقاء هنا ! إن كل انسان هنا يهينني

فابتسم سولومين ، بيد ان ماريانا أحست انه يضحك منها . ومع ذلك لم

تشعر فى هذا بأى اهانة . ولا سيما حين قال :

— ياسيدتى العزيزة ! ان العالم حافل بالحمق . ولا ينبغى أن نقيم لسلوكهم وزناً . فليس هذا إذن سبباً وجيهاً . فهل لديك سواه ؟

وعندئذ قال نجدانوف بصوت أجوف :

— أنا مقتنع ان السيد سيباجين سيطردنى من تلقاء نفسه غداً . فهو يعاملنى الآن معاملة تنطوى على زراية شديدة

— إن كان الأمر كذلك فلماذا الفرار ؟

فسكت نجدانوف لايدرى ماذا يقول . فانبرت ماريانا وقالت :

— لأنى سأذهب معه . ومن أجل هذه المشكلة أردنا أن نتحدث اليك

— جلية الأمر ياسيدتى انه إذا كان العمل العظيم هو السبب الوحيد لرحيلك عن هذا البيت ، فلا حاجة للرحيل فى الوقت الحاضر . أما ان كان السبب هو رغبتكما فى توحيد حياتكما ولا سبيل الى ذلك وأنتما متحابان إلا بالفرار ، ففى هذه الحالة أبدأ أولا بتهنئتكما . ثم بعد ذلك أقول انى مستعد لمعاونتكما بكل ما فى استطاعتي . وأحب أن أؤكد لك ياسيدتى العزيزة انى شعرت بميل نحوكما لأول وهلة . وانى أحبك حباً أخوياً

فتقدم الشابان وصافح كل منهما إحدى يديه بحرارة . وقالت ماريانا :

— أتوسل اليك أن تتولى إرشادنا ، وتوجيه جهودنا الوجهة التي ترى فيها النفع للقضية . ارسلنا حيث تشاء

— الى أين ؟...

— الى الشعب ! وأين يذهب الانسان ان لم يذهب الى الشعب ؟

فرمقها سولومين بنظرة فاحصة وقال :

— أتريدين أن تعرفى الشعب على حقيقته ؟

— ليس هذا فقط . بل نريد أيضاً أن نخدمه ونكدح فى سبيله

— ولكن متى تريدان الفرار ؟

— غداً ان أمكن ...

— والى أين ؟..

— لا ندرى ..!

فنظر سولومين نحو نجدانوف ينتظر رأيه أيضاً ، فأطرق نجدانوف ولم يجب

— لكما أن تأتيا للاقامة عندى فى المصنع . ان المكان ليس جميلا ولكنه مأمون على كل حال وسأخفيكما هناك ، فعندى حجرة اضافية ، بحيث لا يعثر عليكما أحد . فكل ما عليكما أن تصلا إلى هناك دون أن يتبعكما أحد . وثقا اننا لن نسلمكما

— ولكن المصنع مزدحم بالناس ؟ فكيف يصلح للاختفاء ؟

— ياسيدتى العزيزة هذه مزيته . فحيث يكثر الناس يسهل جداً على أى أحد أن يختفى

ونهض العاشقان فجعلا يزجيان إليه الشكر والامتنان بكل حرارة . وبعد أن هدأ قليلا قالت ماريانا :

— ولكنك لن تخبئنا هناك طويلا . أليس كذلك ؟ بل تطلقنا وترسلنا الى مكان نكون فيه نافعين

— هذا يتوقف على نواياكما . فان كنتما راغبين فى الزواج . ففى وسعى أن أفعل ذلك بواسطة جار هو فى الواقع من ذوى قرابتى ، فهو من رجال الكهنوت . ولن يقيم عقبات فى سبيل إتمام مراسم القران

— لست أدرى كيف أشكرك . ولكن ألا تخشى أن يقيم صاحب المصنع العراقيل أو يعترض على إقامتنا هناك ؟ فيسبب ذلك احراجاً لك ؟

— لا تقلقا من جهتى ! فكل ما يريده رب المصنع هو أن تسير الأمور على ما يرام ويجنى ربحاً طيباً . فلا تفكرا فى شىء سوى اعداد العدةواخطارى بالوقت الذى انتظركما فيه

فتبادل نجدانوف وماريانا النظرات

— بعد غد فى الصباح الباكر ، أو فى اليوم الذى يليه. فليس فى استطاعتنا أن نتوانى أكثر من ذلك

— اذن سأعد نفسى لاستقبالكما فى صباح كل يوم منذ الغد . وسوف لا أغادر مقرى بقية الأسبوع وسنتخذ جميع الاحتياطات

وبعد ذلك انفض الاجتماع . وكانت ماريانا هى البادئة بالانصراف . فلما أصبح سولومين ونجدانوف وحدهما ، أطرق سولومين برهة ثم قال :

— حدثنى عن هذه الفتاة . قل لى كل ما تعرفه عنها . وماذا كانت حياتها حتى الآن ؟ من هى ؟ ولماذا هى هنا الآن ؟

فأخبره نجدانوف بكل ما يعرفه عنها بايجاز . وعند ذلك قال سولومين :

ـــ يجب أن تحيطها بكل عنايتك يا نجدانوف . لا ينبغى أن يمسها سوء طاب مساؤك

وما أن أمسى نجدانوف وحيداً حتى وقف وسط الحجرة جامداً كالتمثال ، ثم ألقى بنفسه فوق السرير وخبأ وجهه فى الوسادة وهو يغمغم :

ـــ من الخير أن أكف عن التفكير !

أما ماريانا فانها حين دخلت حجرتها وجدت مذكرة فوق الفراش نصها :

ـــ أنا حزينة من أجلك ، فانك تقضين على نفسك. فكرى فيما تفعلين. فى أى هاوية تلقين بنفسك وأنت مغمضة العينين ؟ ـــ ف

وشمت فى الحجرة رائحة عطر لم تترك لديها شكا فى أن فالنتينا ميخايلوفنا كانت هناك . فتناولت الورقة وكتبت عليها :

ـــ لا تحزنى من أجلى . فالله أعلم من منا نحن الاثنتين أحق بالرثاء . كل ما أعرفه أننى لا أرضى أن أكون فى مكانك ولو كان لى ملك العالمين ـــ م .

ثم وضعت الورقة على المائدة وهى لا تشك فى أنها ستقع فى يدى فالنتينا ميخايلوفنا

وفى الصباح التالى كرر سولومين لسيبياجين رفضه ما عرضه عليه ثم عاد الى مصنعه . وكان ما يشغل ذهنـــه طول الطريق هو نجدانوف . ولم يغالب خاطراً ألح عليه ، إنه لو كان عاشقاً مثل نجدانوف لتغيرت سماه ولكان شيئاً آخر غير ما يبدو عليه نجدانوف الآن . ثم هز كتفيه قائلا لنفسه :

ـــ الحب ؟! هذا شىء لم يحدث لى أبداً . فليس لى اذن أن أقطع برأى فى حالتى لو كنت عاشقاً

وتذكر فتاة إيرلندية كانت بائعة فى دكان مدة اقامته بانجلترا . . وتذكر كيف كانت تنظر إليه بعينيها الزرقاوين وأهدابها الطويلة وهو يمر أمام دكانها جملة مرات فى النهار . لـــكن شجاعته خانته فلم يقدم على التعرف إليها على الرغم من ابتساماتها المشجعة . ولا يدرى ما جعله يقول لنفسه :

ـــ لقد كانت تلك الفتاة ـــ واسمهـــا بولى ـــ أجمل من ماريانا بكثير . ولـــكن ماريانا فيها هذا الحزن القريب إلى القلب ، وذلك الطابع الروسى الخاص ولـــكن ما شأنى أنا وعرائس الناس ؟

وفى هذه اللحظة وقفت به العربة أمام المصنع

الحب والحرية

استاء سيياجين جداً لأن سولومين أصر على رفض عرضه . وترتب على ذلك الاستياء انه بدأ يقلل من أهمية سولومين التي كان يطنب في امتداحها . وأدهى من ذلك ان سخطه زاد على الشاب الآخر نجدانوف . وبدأ في هـذا اليوم بأن قال لابنه كوليا انه لا حاجة به لتلقى دروس في هذا اليوم . بيد انه لم يطرد المعلم بصراحة بل استمر على خطة تجـاهله . أما فالنتينا ميهايلوفنا فلم تتجاهل ماريانا ، بل حدثت بينهما مشاحنة فظيعة

قبل الغداء بساعتين وجدتا نفسيهما وجهاً لوجه وحدهما في حجرة الجلوس . فشعرت كل منهما ان ساعة الموقعة الحاسمة قد دنت . وبعد لحظة تردد اقتربت كل منهما نحو الأخرى

أما فالنتينا ميهايلوفنا فكانت تبتسم ابتسامة باهتة . في حين زمت ماريانا شفتيها بقوة . وكانتا شاحبتين على السواء . وكانت مدام سيياجين هي البادئة بالوقوف ، ثم راحت تنقر بأناملها على ظهر مقعد ، وقالت بتمهل :

— يبدو أننا بدأنا حلقات من المراسلات فيما بيننا . وهذا يبدو لى غريباً ما دمنا نعيش تحت سقف واحد

— لم أكن أنا البادئة بهذه المراسلات يافالنتينا ميهايلوفنا

— هذا حق . فأنا الملومة لذلك . ولـكن لم تخطر لى وسيلة أخرى لتنبيه شعورك ... بماذا أقول ؟...

— لك أن تعبرى عن رأيك بغير مواربة . فلن أشعر باهانة

— أردت أن أنبه شعورك ... بالحياء

— ومن أى جهة تظنيننى خرقت قواعد الحياء ؟

فهزت فالنتينا ميهايلوفنا كتفيها وقالت :

— انك ياعزيزتى لم تعودى طفلة . وأخالك تدركين تماماً ماذا أعنى . أم

هل تظنين سلوكك كان يمكن أن يظل خافياً على وعلى أنا زهاروفنا ، وعلى البيت بمن فيه أجمعين ؟ وبهذه الناحية أقول انك لم تفكرى فى التخفى . بحيث لم يجهل خطواتك إلا بوريس وحده لأنه مشغول بأمور أهم من هذا

— وضحى من فضلك ما الذى يسخطك من سلوكى ؟

— انى لا يمكن ان أرضى عن هذه الاجتماعات الطويلة التى تعقدينها على انفراد مع شاب أقل منك نسباً وتربية ومكانة اجتماعية . ان هذا كان يمكن أن يهون . ولكن الذى أفزعنى حقاً هو تلك الزيارات الليلية لحجرة ذلك الشاب. وأين من فضلك ؟ تحت سقفى ! وربما لم ترى فى هذا شيئا غريبا . أو لم تجدى لى به شأنا . ولكنى فى الواقع مسئولة عن كل مايجرى فى البيت . ولست مستعدة أن أتستر عليك

فابتسمت ماريانا لأول مرة وقالت بهدوء :

— ثقى ان استنكارك هذا غير ذى موضوع . فأنا لم أجلب العار على بيتك . وهذا الشاب الذى أشرت اليه ... أنا أحبه

— أنت تحبين مستر نجدانوف ؟

— نعم أحبه ...

فحملقت فالنتينا ميخايلوفنا فى وجهها وقالت :

— ولكنه ياماريانا طالب لا نسب له ولا أسرة ، وهو أصغر منك سنا . وماذا ترين فيه ؟ انه فتى غر !

— لم يكن هذا رأيك فيه يوما ما يا فالنتينا ميخايلوفنا

— انى أخشى على مستقبلك . ما الذى يمكن أن تستفيديه من هذا الزواج ؟

— الحقيقة يافالنتينا ميخايلوفنا انى لم أفكر فى المسألة على هذا الضوء

— على ضوء ماذا ؟

— أعنى لم أفكر فى موضوع الزواج حتى الآن

— أنت مجنونة ولا شك

— لا لزوم للمهاترة يافالنتينا ميخايلوفنا ، ولا جدوى للمناقشة لأن كلا منا لا تفهم لغة الأخرى

— بل لابد من الاستمرار فيها . ان الأمر خطير . وأنا مسئولة عنك أمام العالم أجمع . ولا يمكن أن أسكت على هذا الهراء ! ثم لماذا لا أستطيع أن أفهمك

من فضلك ؟ ما أعجب كبرياء الجيل الجديد التي لا تطاق ! إني على العكس أفهمك تمام الفهم . وأراك مسممة الأفكار بالنزعات الحديثة التي ستقضي عليك . ولن نستطيع انقاذك

— ربما . ولكن ثقي انني لن أمد أصبعي نحوك لتنقذيني

— كبرياء أجوف ! لست أزعم انني شعرت نحوك يوما شعور الأمومة . ولكني كنت على الدوام أشعر أن علي تبعات نحوك ، وحاولت دائما أن أنهض بها . وكنت مستعدة أنا وبوريس أن نضحي بثروة كبيرة في سبيل تزويجك من رجل اخترناه لك . وهو وإن لم يتفق معك في الآراء ، إلا انه ...

— ماذا تقولين يافالنتينا ميهايلوفنا ؟ ماهذا الذي تذكرين ؟ أمر زواجي ؟ وهل تسمين صديقك هذا الفظ الغليظ القلب كولوميتزيف عريسا ؟

— نعم يامارياتا فيكنتيفنا ! اني أعني ذلك الشاب المثقف الممتاز كولوميتزيف ، فهو رجل يمكن أن يسعد أي زوجة ، ولا ترفضه إلا مجنونة !

— وما العمل في ضيقي ؟ يبدو انني مجنونة كل الجنون !

— ألديك عليه اعتراض جدي ؟

— لا شيء مطلقا ، سوى انني أحتقره

— فلنتركه إذن ولنعد الى موضوعنا الأصلي . أتحبين حقا نجدانوف ؟

— أجل ...

— ولنفرض انني حرمت عليك ذلك ؟

— لن أقيم وزنا لذلك

— ماذا تقولين يافتاة ؟ لا تقيمين لي وزنا ؟! هذا كلام تقوله لي فتاة لم تجد مني سوى العطف والحنان ، ربيتها في بيتي ...

— نعم . وابنة رجل موصوم ! قوليها ولا تتحرجي

— لم أقل شيئاً كهذا . وعلى كل حال ليس هذا موضع فخر لأحد ! ولكنك على الأقل تعيشين عالة علي !

— على رسلك يافالنتينا ميهايلوفنا ! فاني أوفر عليك مرتباً باهظاً لو انك استقدمت مربية فرنسية لكوليا . فلا تنسى انني ألقنه دروس هذه اللغة كل يوم ! ثم انك تقولين ان جميع من في الدار يعرفون حقيقة سلوكي . وانهم جميعاً يستنكرون . ولكن هل تظنينني أهتم برأيهم مجتمعين أو فرادى ! أما



« فأسرعت ماريانا بالخروج . وألقت فالنتينا ذراعيها حول عنق زوجها ... »

خبزك ياسيدتى فهل تظنين طعمه كان حلو المذاق فى فمى ؟ انى أفضل ألف مرة أشد الفاقة على هذا الترف . فهناك هوة تفصل بينى وبين بيتك . هوة لا سبيل الى اجتيازها . انك امرأة ذكية . فيجب أن تدركى انك مادمت تكرهيننى ، فلا يمكن أن يكون شعورى نحوك هو المودة والولاء . هذا بديهى لا يحتاج الى بيان

فاشتد الحنق بفالنتينا ميهايلوفنا ، وجعلت تدق الأرض بقدمها الصغيرة وتصرخ بالفرنسية فى صوت مبحوح :

— اخرجى من بيتى ! اغربى عن وجهى

فأسرعت ماريانا بالخروج . وهمت فالنتينا ميهايلوفنا أن تصرخ وتذرف الدموع ، وإذا بزوجها يدخل الحجرة فسألها بقلق :

— ما خطبك ؟ ماذا جرى ياعزيزتى ؟

— لا شىء !

ثم ألقت ذراعيها حول عنقه بحركة رشيقة وأخفت وجهها فى صدره وصرحت له بكل شىء . واجتهدت أن تتظاهر بالدفاع عن ماريانا والتماس الأعذار لها من شبابها وحدة مزاجها ونقص تربيتها الأولى . ولم يفتها أن تلوم نفسها لأنها كان ينبغى أن تبذل عناية أشد ورقابة أدق نحو هذه الفتاة

وأصغى سيبياجين لها بعطف شديد . ولكن الصرامة كانت مرتسمة على وجهه . فلما فرغت قبل جبينها وقال بحزم :

— انى أعرف بالضبط ماذا ينبغى أن أفعل بصفتى رأس هذا البيت

ثم خرج من الحجرة بخطوة ثابتة شأن من انتوى القيام بواجب ثقيل ولكنه شاق ...

□

وفى الساعة الثامنة ، بعد العشاء ، كان نجدانوف جالساً فى حجرته يكتب خطاباً الى صديقه الحميم سيلين :

« عزيزى فلاديمير

« أكتب اليك فى لحظة حرجة من حياتى . فقد فصلت من العمل فى هذا البيت وسوف أرحل من هنا . وهذا فى حد ذاته ليس شيئاً ذا بال . وإنما المهم انى سوف لا أرحل وحدى . فالفتاة التى كتبت لك عنها ستذهب معى . إذ

يجمع بيننا تشابه قدرنا فى الحياة ، ووحدتنا الموحشة ، وآراؤنا ، وآمالنا ، وحبنا المشترك . نعم كل منا يحب الآخر . وأنا واثق انى لا يمكن أن أشعر بعاطفة الحب إلا على هذا النحو الذى أشعر به الآن

« ولكنى لا أخفى عليك انى أشعر برهبةوخوف غامض . لأن كل شىء فى مستقبلنا تكتنفه الظلمات . وكل ما نعرفه انى وماريانا لا ننشد السعادة والهدوء . بل ننشد الاشتراك معاً فى كفاح مقدس . وهو كما ترى هدف واضح. وماريانا فتاة أمينة طيبة . ومع هذا أشعر يافلاديمير بالتعاسة . فالشك يمزق صدري لا من جهتها طبعاً ... ولكن لست أدرى من أى جهة ! وقد فات على كل حال أوان التراجع . فكر فينا دائماً »

▭

ولما فرغ من كتابة هذه السطور توجه الى القرية ، وهناك قضى الليل فى خان . وفى الليلة التالية ، قبل طلوع النهار ، كان واقفا عند طرف الغابة الملحقة بحديقة سيبياجين . وعلى بعد يسير منه عربة ريفية شد اليها حصانان من خيول العمل فى الحقل . وكان السائق فلاحا عجوزاً نائما على كومة من القش الجاف . وظل نجدانوف يتطلع الى الطريق بقلق الى أن صبغت حمرة الفجر الأفق . وفجأة تصلبت أوصاله ، وسمع وقع أقدام خافتة ، ثم تبين شبحا فأسرع نحوه وهو يهتف :

— ماريانا ؟

— أنا . أعطنى ذراعك

وكانت ترتجف وهو يقودها الى العربة ويوقظ الحوذى الشيخ ، ثم قفز الى جوارها . وجمع المعطف حولها ، ولف قدميها فى بطانية . ثم انطلقت العربة بهما . وكان الندى يسقط بغزارة والجو بارداً . فسرت الرعدة فى أوصال ماريانا وقالت فى شىء من المرح :

— ما أشد البرد . ولكنها الحرية يا أليوشا ! الحرية !

▭

اندفع سولومين الى خارج أبواب المصنع بمجرد أن قيل له أن سيداً وسيدة وصلا فى عربة ويسألان عنه . ولم يوجه إليهما كلمة ترحيب ، بل اكتفى بهز رأسه بضع مرات ، ثم أمر الحوذى بالدخول إلى الفناء والوقوف أمام الجناح

الصغير المخصص لسكناه . ثم ساعد ماريانا على النزول من العربة . وقفز نجدانوف فى أثرها . وقادهما سولومين معاً إلى ممر ضيق ثم الى سلم صغير متعرج خلف البيت فصعد الثلاثة الى الطابق الأعلى . وفتح باباً أفضى الى حجرة صغيرة أنيقة لها نافذتان . وعندئذ فقط تكلم فقال

— هذه حجرتكما . وهناك حجرة أخرى من داخلها . هى لكما أيضاً . ولئن لم يكن منظرهما يشرح الصدر ، فميزتهما أنهما غير مكشوفتين لأحد ، ومستقلتان ، فهما مخبأ أمين خال من الجواسيس . وتحت النافذة مباشرة حديقة يسميها مالك المصنع حديقة أزهار . وهى فى الحقيقة حديقة خضروات. ومن الناحية الأخرى لا أثر للسكان يميناً أو شمالا . وكيف حالك يا سيدتى ؟ وأنت يا نجدانوف ؟

ثم هز يديهما ووقف الاثنان يخلعان ما عليهما من معاطف وهما يحدقان أمامهما وقد أصبحا نهباً لعواطف من الغموض والمغامرة والمرح . الى أن قال سولومين:

— وأين حقائبك يا سيدتى ؟

فطوحت ماريانا يدها بربطة صغيرة وقالت :

— ليس معى إلا هذه . أما نجدانوف ...

— معى حقيبتان تركتهما فى العربة . سأذهب كى ...

— لا تتعب نفسك سيأتى بهما بافل

ونادى بافل فكلفه بالمهمة ، ثم انتهى الى ماريانا فقال لها :

— هل سار كل شىء على ما يرام ؟

— أجل لم يشعر بخروجنا أحد . وقد تركت رسالة لمدام سيبياجين . ولكنى يا فاسيلى فيدوتتش لم أحضر معى شيئاً من ملابسى . لأنها من النوع الذى لا يلائم حياة الكفاح الجديدة . ومعى على كل حال نقود أشترى بها ما يلزمنى

— هذه مسألة نفكر فيها بعد الشاى . وعلى فكرة، تقوم بالخدمة والمطبخ هنا تتيانا زوجة بافل . ويعتمد عليها كما يعتمد عليه ، أى كل الاعتماد يا سيدتى

— أرجو منك أن تناديني ماريانا . كما أنى لست بحاجة الى خدم . ولولا هذا لما هربت من هناك . وأرجو منك ألا تنظر إلى ثوبى الفاخر . فلم أجد

ما هو أنسب منه وأبسط ، وسأغير طبعاً على هذا الطراز والمستوى فى الزى

— ربما لم تكونى بحاجة إلى خادم . ولكنك ولا شك تحتاجين الى مساعدين أو معاونين على الطريقة الأمريكية . وكنت أتمنى أن أقوم بذلك دائماً . ولكنى مضطر أن أكون دائماً فى المصنع . فان احتجتما لأى شئ اطلباه من بافل أو زوجته تتيانا

فمدت ماريانا إليه كلتا يديها بسرعة وشكرته بتأثر . فربت على احدى يديها بلطف :

— المفروض أن أقول إنه لا يوجد ما يستوجب الشكر . ولكن هذا يكون غير مطابق للواقع . فمن الخير أن أقول شكركما مصدر سرور عظيم لى. وبهذا نكون « خالصين »

ثم انصرف إلى المصنع يتبعه بافل الأمين، وانفرد نجدانوف وماريانا لأول مرة . . .

واندفعت إليه ماريانا ثم أخذت تنظر إليه بمزيج من الاعجاب والفرح والاشراق ، ثم هتفت من أعماقها :

— آه أيها العزيز .. ها نحن قد بدأنا حياة جديدة ... أخيراً ! أخيراً !. ولن تستطيع أن تتصور كيف تبدو لى هذه الحجرة الصغيرة الحقيرة التى سنمضى فيها بضعة أيام ، كيف تبدو لى عذبة ساحرة بالقياس الى تلك القصور البغيضة ! أمسرور أنت ؟

فتناول نجدانوف يديها كلتيهما وضغطهما فوق صدره ثم قال :

— انى سعيد يا ماريانا أن أبدأ هذه الحياة الجديدة معك ! . ستكونين نجمى الهادى ، ومعوانى ، وعمادى ، وعتادى . . .

— عزيزى أليوشا.. كفى شعراً... يجب أولا أن نغتسل ونرتب مظهرنا قليلا . سأذهب إلى حجرتى الداخلية . . أما أنت ، فتبقى هنا . دقيقة واحدة

ودخلت ماريانا إلى الحجرة الأخرى وأغلقت الباب . وبعد دقيقة واحدة فتحت الباب الى النصف وأطلت برأسها منه لتقول :

— أليس سولومين لطيفاً ؟ !

ثم أغلقت الباب ثانية وسمع المفتاح يدور فى القفل . فاتجه نجدانوف نحو النافذة ووقف يطل على الحديقة ... فاستلفتت نظره شجرة تفاح عتيقة جداً .

وبعد برهة تمطى ثم فتح حقيبة ثيابه الخارجية . بيد أنه لم يخرج منها شيئاً وشرد فى أفكاره

وبعد ربع ساعة عادت ماريانا بوجه مشرق لامع من أثر الغسيل ، وبعد دقيقة واحدة دخلت تتيانا تحمل أدوات الشاى ومعها الفطائر والقشدة . فاذا بها تمثل الطراز الريفى الروسى بطولها وشعرها المنسدل الغزير الذى تغرس فيه مشطاً من الطبخ . والطيبة تشع من عينيها الرماديتين . وكانت نظيفة جداً على الرغم من فقر ثيابها . وبعد أن انحنت بأدب وحيتهما بصوت عذب نسقت أدوات الشاى . وتقدمت منها ماريانا لتساعدها فقالت لها تتيانا :

— لا تتعبى نفسك يا آنسة . وكلما احتجت إلى شىء اطلبيه منى أقضه بسرور

— أرجوك لا تناديني آنسة . فلئن كنت ألبس ثياب السراة ، إلا أننى ..

ونظرت إليها تتيانا نظرة فاحصة فلم تستطع إتمام جملتها. وسألتها تتيانا بثبات:

— اذن ممن تكونين ؟!.

— انى من السراة بحكم المولد فعلا . ولكنى أريد أن أتخلص من هذا كله كى أغدو امرأة بسيطة مثلك

— آه فهمت ! إنك تريدين أن تتبسطى كما هى « موضة » هذه الأيام . أن تصبحى مثل العوام . وقد سمعت أنك تتطوعين لتعليم الشعب . أعانك الله فهى مهمة شاقة

ونظرت نحو نجدانوف ثم قالت باسمة فى رقة :

— هل هو زوجك ؟ أم هو أخوك ؟

— لا هذا ولا ذاك ...

فرفعت تتيانا رأسها وقالت :

— أنتما اذن تعيشان معاً هكذا ، طليقين من القيود ؟ انها المعاشرة الحرة التى شاعت أيضاً فى هذه الأيام . وقد كان هذا سائداً فيما مضى فى طبقة محدودة. أما الآن فكثيرون من أبناء الشعب يفعلون ذلك . وعندنا فى المصنع أزواج كثيرون لم يجمعهم الكاهن . ومع ذلك فهم ليسوا أسوأ من سواهم

— انك تجيدين التعبير يا تتيانا بلباقة . وأنا أريد منك أن تساعدينى فى

شراء ثوب كثوبك هـذا ، ولـكنه أبسط . مثل ثوبك فى كل شىء حتى المنديل والحذاء

— هذا أمر هين جداً يا آنسة ! لا تغضبى ! فلن أقول لك آنسة مرة أخرى ! ولـكن خبرينى بماذا أناديك اذن ؟

— نادينى ماريانا كما أناديك تتيانا . ألا تشربين معنا قدحاً من الشاى ؟

— سأقبل الدعوة هذه المرة فقط . وان كان زوجى سيوبخنى

— اذن اجلسى يا تتيانا

— شكراً لك ياماريانا

ودار الحديث حول هذه المنطقة وكيف أنها لا بالمدينة ولا بالريف،جمعت أسوأ ما فيهما . وانه لولا سولومين لكانت تتيانا هاجرت مع زوجها. وأبدت ماريانا رغبتها فى أن تعلمها تتيانا الطهو . لأنها راغبة فى أن تحترف شيئاً يكون مصدر رزق لها

فاعترضت تتيانا على ذلك قائلة :

— ان مهنة طاهية لن تيسر لك عملا إلا فى قصر من قصور السراة . وهذا يبعدك عن الشعب

— فى استطاعتى أن أعمل فى قصر وأعيش بعقلى ووجدانى مع الشعب

— وهناك صعوبة أخرى . لن يفوت مخدوميك أنك تنتمين الى الطبقة العالية مهما كانت ثيابك متواضعة . فأنت مثلا تدخنين

فقذفت ماريانا بسيجارتها من النافذة وقررت أنها لن تدخن . وفى هذه اللحظة سمعت أقداماً تصعد السلم ، ثم صوت سولومين يستأذن فى الدخول . وقد سره كثيراً أن يرى تتيانا تتناول الشاى مع صاحبيه ، وأطرى عقليتها ومنطقها ثم أخبرها أن مخدومه صاحب المصنع حضر وسيتناول معه الغداء . ولهذا سوف ينشغل به ذلك اليوم . ولـكن لن يطيل المـكث

— أما طعامكما فستأتى به تتيانا الى هنا . ولا يمكنكما مغادرة الحجرة لأن آل سيباجين يبذلون الآن وسعهم فى تعقب آثارك وتنسم أخبارك يا ماريانا

وأبدى نجدانوف رغبة فى أن يحاط ماركيلوف علماً بمكانهما . وأن يتم اعداد ثياب تنكرية له شخصياً على حسب اتفاق سابق مع سولومين . فوعد بذلك وأردف

— ولابد أنكما الآن تشعران بالتعب . هيا بنا يا تتيآنا
وهكذا خلا المكان لماريانا ونجدانوف مرة أخرى

▭

تشابكت أيديهما فى صمت . ثم أبدت ماريانا استعدادها لمعاونته فى تنسيق حجرته . وعلى الفور شرعت تخرج ما فى حقيبته . ولما أراد أن يشترك معها اعترضت بحجة انها يجب أن تتمرن على العمل اليدوى . وعلقت ملابسه فوق مسامير اكتشفتها فى درج المنضدة . ودقتها فى الحائط بظهر فرشاة . ثم رتبت ملابسه الداخلية فى أدراج من دولاب صغير وجدته فى الركن بين النافذتين . ثم وضعت الحذاءين تحت الأريكة ، أما الكتب فوضعتها فوق مائدة ذات ثلاثة أرجل أطلقت عليها اسم المكتب . أما المنضدة الكبيرة المستديرة فسمتها مائدة الطعام والشاى . ثم تناولت الكراسة الصغيرة التى يكتب فيها أشعاره ورفعتها الى مستوى وجهها ، ثم نظرت من فوقها الى نجدانوف وقالت باسمة :

— سنقرأ هذه الكراسة معا فى أوقات فراغنا . أليس كذلك ؟

— كلا كلا ! بل أعطنيها لأحرقها ! ما جدوى الشعر ؟

— لن أدعك تحرقها . بل سأضعها فى حجرتى

وأوشك أن يعترض ويحتج ، فاندفعت بهـا الى الحجرة الأخرى وعادت بدونها ، ثم ساد الصمت المشبع بالحرج بينهما . الى أن ابتسمت هى وقالت :

— يبدو لى اننا كلينا نشعر بعدم الارتياح . كأى عروسين شابين يخرجان من بيت ذويهما لأول مرة لقضاء شهر العسل معا . فكل شىء بين يديهما ، ولكنهما مع هذا يشعران بالوحشة والتهيب وعدم الارتياح

فابتسم نجدانوف ابتسامة مغتصبة وقال :

— تعلمين جيداً يا ماريانا اننـا لسنا مضطربين بسبب جهلنا معنى شهر العسل ..

— ان شهر العسل لا تتوقف بدايته الا عليك أنت

— وكيف كان ذلك ؟

— يا عزيزى أليوشا . بمجرد أن تقول لى انك تحبنى من أعماق نفسك ذلك الحب الذى يخول لشخص الحق فى حياة شخص آخر ، سأصدقك فى الحال لأنى أعلم انك صادق مخلص شريف . ومنذ تلك اللحظة أكون لك

فاحمر وجه نجدانوف وأشاح قليلا وقال :

— عند ما أقول لك انى ...

— أرأيت ؟ انك لم تبادر بقول ذلك يا أليوشا . وهذا يدل على انك كما توسمت فيك رجل صادق مخلص شريف . والآن لنغير الموضوع ونتحدث فى شىء جدى !

— ولكنى أحبك ياماريانا

— لست فى شك من هذا ... وسأنتظر . ولكن ماهذا الشىء الملفوف الذى لم أرتبه فى مكانه ؟

فالتفت نجدانوف وقفز من مكانهوهو يناشدها ألا تمسها ، فرفعت حاجبيها فى دهشة وقالت له :

— أسر هى ؟ أتخفى عنى سراً ؟

— نعم . انها صورة ...

— صورة امرأة ؟ إذن خذها واحتفظ بها

وناولته اللفافة . فتناولها مرتبكا فسقطت من يده وانفتحت وعندئذ صاحت :

— عجبا ! انها صورتى أنا . هل أنت الذى رسمتها ؟

— ليس أنا . بل ماركيلوف

— وكيف صارت اليك إذن ؟

— هو أعطانيها ...

ثم شرح لها بإيجاز ظروف ذلك الاهداء . وجعلت هى تردد النظر بينه وبين تلك الصورة . ثم خطر لذهنيهما فى وقت واحد ذلك الخاطر الهائل

— لو كان هو فى هذه الحجرة ، إذاً لكان من حقه أن يطلب منها ...

بيد ان نجدانوف لم يفصح عن هذا الخاطر ، وكذلك هى . وربما كان ذلك لأن كلا منهما فطن الى ما يجول فىذهن الآخر . وغمغمت ماريانا قائلة :

— ياله من رجل طيب القلب ! ترى أين هو الآن ؟

— فى بيتهطبعاً . وغداً أو بعد غد يجب أن أذهب لزيارته بخصوص بعض المنشورات التى وعدنى بها

— وهل تعتقد يا أليوشا انه حين أعطاك هذه الصورة تنازل حقاً عن

كل شيء ، عن كل شيء إطلاقاً ؟

— أعتقد ذلك ...

— وهل تظن انك ستجده في بيته ؟

وفي هذه اللحظة أقبلت تتيانا تحمل العشاء ، فضمت ماريانا بصرها ثم جلسا الى المائدة في حين جلست تتيانا على حرف النافذة . وبعد قليل قالت :

— ان قلبي ينتفض تأثراً وأنا أرقبكما فأرى فيكما صورة حية لحبيبين رقيقين . لقد جددتما لي أهواء الشباب . وان قلبي لينفطر حين أفكر في ان أمثالكما هم الذين يتعقبهم القيصر ورجاله ليزجوا بهم في السجون

فقال نجدانوف :

— لا تخوفينا من فضلك !

وأرادت ماريانا أن تغير موضوع الحديث فسألتها :

— هل عندك أطفال ياتتيانا ؟

— أجل . عندي غلام يذهب الآن الى المدرسة . وكانت عندي ابنة . ولكن العصفورة الصغيرة طارت : حدث لها حادث . سقطت تحت عجلة . وليتها قتلتها في الحال ! فقد تعذبت المسكينة طويلا . ومنذ تلك اللحظة ازداد قلبي رقة . أما قبل ذلك فكنت صلبة عاتية كأنني الدوحة الراسية

— لماذا ؟ ألم تكوني تحبين بافل ؟

— طبعاً كنت أحبه . ولكن ليس ذلك النوع من الحب . كنت أحبه بمشاعر فتاة مفتونة بنفسها مشغولة بها ... وأنت أتحبينه ؟

— طبعاً أحبه ، كثيراً جداً

ثم نقلت بصرها بينهما وسكتت الى أن استأنفت ماريانا الحديث :

— أريد منك خدمة ياتتيانا

— بكل سرور

— أريد صوفاً خشناً قوياً . كي أغزل جوارب عادية

فوعدتها تتيانا أن تحضر لها ما أرادت ثم قامت فنظفت المائدة من أثر الطعام الصامت وخرجت بخطوة ثابتة هادئة

وعندئذ التفتت ماريانا الى نجدانوف وقالت له :

— والآن ماذا نصنع ؟

ومن غير أن تنتظر جواباً استطردت تقول :

— مادام ليس أمامنا الليلة شيء مهم ، وعملنا الجدى فى القضية سوف لا يبدأ قبل الغد . فلماذا لا نخصص الليلة للأدب ؟ وما قولك فى أن تقرأ أشعارك؟ انى أعدك أن أكون ناقدة قاسية

وتمنع نجدانوف فى مبدأ الأمر . بيد ان إلحاحها كان أقوى من معارضته فأتته بالكراسة وراح يقرأ منها بصوت مرتفع . وجلست ماريانا ملتصقة به ، وراحت تحدق فى وجهه وهو يقرأ . ولما شرعت تنقده فى ختام القصيدة ، أثبتت انها كما قالت حقا عن نفسها ، ناقدة شديدة المراس :

— ان مثل شعرك هذا يعجب أصدقاءك . لا لأنه شعر جيد . بل لأنك انسان طيب ، وشعرك يمثلك !

فابتسم نجدانوف وقال :

— لقد واريت شعرى التراب وأنا معه

فربتت على ظهره ضاحكة . ثم قالت :

— الآن أريد أن أنام لأنى أشعر بالتعب . وبهذه المناسبة هل تعلم أن معى مائة وثلاثون روبلا ؟ وكم معك أنت ؟

— ثمانية وتسعون ..

— هذه ثروة بالنسبة لحالتنا الشعبية الجديدة. والآن طاب ليلك والى الصباح!

وبعد دقيقتين أطلت من باب حجرتها وسمعها تقول مرة أخرى :

— طابت ليلتك..!

ثم دار القفل فى المفتاح . فهوى نجدانوف فوق الأريكة ، وغطى وجهه بكفيه



جهاد .. وأحلام

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى طرق نجدانوف باب ماريانا ، فلما سألت من الطارق ، أجابها :

— أنا . هل يمكنك أن تخرجى إلى لحظة ؟

— فى مدى دقيقة واحدة

وبعد دقيقة خرجت إليه ، فأطلقت عندما رأته صيحة ذعر. لأنها لم تعرفه فى بداية الأمر ، إذكان مرتدياً زياً تنكرياً غريب الشكل . وقد لف حول عنقه منديلا أزرق وأمسك فى يده قبعة ممزقة ، ولبس فى قدميه حذاء قذراً

— يا إلهى ! ما أقبح منظرك !

ثم طوقته بذراعيها وقبلته بسرعة وسألته :

— ولكن لماذا فعلت بنفسك هكذا ؟ إنك تبدو مثل خادم متقاعد.. لماذ لم تتخذ ثياب الفلاحين بكل بساطة ؟

— لأنى على قول بافل كنت أفتضح لأول وهلة . أما هـذا الزى فيدو للناظر أنى خلقت له . وهو تقدير لا يرضى غرورى كثيراً

— وهل انتويت أن تبدأ فوراً ؟ إنك حقاً هام

— ان بافل ساعدنى كثيراً ، فهو رجل ذكى لبق . ومن أخلص الأنصار للقضية . وقد ذهب بنفسه فأحضر لى الـكتب والمنشورات من عند ماركيلوف لأنه يعرفه من قبل . وهو فى الوقت نفسه مخلص جداً لسولومين ومستعد أن يخوض النار فى سبيله

— وكذلك تتيانا مخلصة له جداً . ترى لماذا يوحى الى الناس بالولاء ؟

فسكت نجدانوف ولم يجب . وفى هذه اللحظة دخل سولومين فهتف :

— ها أنت ذا .. ان هذا الزى لا يوحى لأى إنسان بأن يكلمك بأدب . ثم ان الساعة ما زالت مبكرة فلا تخرج الآن

— أردت فقط أن أتعود على الزى الجديد. وسأخرج بعد قليل لأكتشف المنطقة . وسأكتفى بذلك الى أن تصدر أوامر أخرى

— بهذه المناسبة أريد أن أقدم لك نصيحة . ان معك منشورات وكتباً للدعاية . وزعها أينما شئت . إلا بين عمال المصنع !

— ولم لا ؟

— أولا لتأمين محل اقامتك . وثانياً لأنى قطعت على نفسى وعداً لصاحب المصنع ألا أمارس ذلك النوع من النشاط هنا من حيث أنه قام بانشاء مدرسة وعيادة طبية

فوعده نجدانوف بذلك وهو يبتسم ابتسامة ساخرة . وفى هذه اللحظة برزت عند عتبة الباب ماريانا مرتدية ثوباً من قماش رخيص مطبوع ، وفوق رأسها منديل أصفر ، وعلى كتفيها شال أحمر . فبدت فى هــذا الزى أكثر اشراقا ووضاءة . فلما نظر إليهــا سولومين باعجاب احمر وجهها . فانفجر سولومين ضاحكا ، وانتقل المرح الى الجميع حتى تتيانا، ما عدا نجدانوف الذى تشبث بمظهر الجد ، ثم نهض نجدانوف وخرج هو وتتيانا وبقى الاثنان معاً . فظل ساكتاً ، فرفعت إليه وجهها مستغربة صمته ، فوجدته ينظر إليها باستطلاع ، فاحمر وجهها مرة أخرى وشعرت باضطراب خفى وعندئذ مد لها يديه وقال :

— وأنت أيضاً ها قد بدأت . وارتديت ثياب حياتك الجديدة . وإنى لأتصورك بزيك هذا وراء المتاريس تحمسين الثوار وتضمدين الجرحى وتهتفين للجمهورية

— انى أحلم بشىء أهم من هذا . أحلم باشتراك فعلى فى المعركة

— ان تعليم الشعب وتربية الأطفال ومداواة المرضى اشتراك فى المعركة

— لن يكفينى هذا . ولـكن حتى ماتقول يجب أن أتعلمه من تتيانا . يجب أن أتعلم ما هى روح الشعب وما هى معيشته . يجب أن تبلى يداى من غسل الأطباق وأوانى المطبخ ! يجب أن أحس بما تحس به امرأة من الشعب! أريد أن أرتفع الى المستوى العظيم الذى يحقق حلمك بالمرأة الروسية . وبعد ذلك أموت راضية يا سولومين

فوقف سولومين وحملق فيها ثم قال :

— كلا . الأفضل أن تعيشي للقضية لا أن تموتي في سبيلها ! هذه هي النقطة الجوهرية . أن نحقق الحياة لا أن نموت . وبهذه المناسبة ، ان كنت تريدين أن تعرفي ماذا يحدث لدى آل سيباجين فليس عليك إلا أن تبدي اشارة لبافل فيأتيك بالخبر اليقين في أقل من لمح البصر

— يا له من رجل مدهش !

— انه مدهش حقاً بكل تأكيد . وحالما تريدين الزواج من نجدانوف ، يمكنه أن يرتب ذلك أيضاً لك فيذهب لاحضار القس زوسيم فوراً . ولكن ربما لا يكون هذا ضرورياً حتى الآن . أليس كذلك ؟

— كلا ليس ضرورياً للآن

فنهض سولومين وتوجه بين الباب الفاصل بين حجرتها وحجرة نجدانوف وفحص القفل ، فسألته ماريانا بدهشة :

— ماذا تصنع ؟...

— أهو يقفل جيداً ؟...

فخفضت طرفها وقالت همساً :

— أجل !...

فنظر إليها ملياً ، ولكنها لم ترفع عينيها . فاتجه نحو الباب ليخرج وإذا بها تستوقفه

— نعم ؟...

— لماذا ينطلق لسانك معي مع أنك تؤثر الصمت في معظم الأحيان ؟ انك لا تدري مبلغ السرور الذي تدخله على نفسي بذلك

فتناول سولومين يديها الصغيرتين الناعمتين في يديه الكبيرتين الصلبتين وقال بصوت خفيض متئد رقيق :

— لماذا ؟. لماذا سألتني هذا السؤال ؟ لعل السبب أنني أحبك كثيراً !

ثم أفلت يديها وانصرف

ووقفت ماريانا تنظر في أثره متفكرة . وبعد برهة ذهبت الى تتيانا وشربت معها الشاي وغسلت بضعة آنية . بل وتولت عملية الحمام والتمشيط لبضعة أطفال من أبناء العمال

وقبل الغداء عادت الى الحجرة . ولم يلبث نجدانوف أن وصل فدخل يعلوه

التراب ، وألقى بنفسه على الأريكة . فذهبت على الفور وجلست بجانبه
— خبرنى بكل ما حدث لك
— التقيت صدفة بأربعة رجال . عرضت عليهم منشوراتى. فسألنى الأول أهى كتب دينية . ولما أخبرته رفض أن يأخذها
— والثانى ؟
— الثانى كان لا يعرف القراءة ولكنه أخذها ليتفرج أولاده على ما فيها من الصور
— والثالث !
— بدا ان فيه بعض الأمل . ولكنه عند مناقشته سبنى وألقى بها فى وجهى
— والرابع ؟
— والرابع لم يثر أى متاعب . لقد اكتفى بانتقاء كتاب صغير أخذه شاكراً . وجعل يصغى مفتوح الفم لما قلته له . ولكنى أشك كثيراً فى انه فهم حرفا
— وماذا عندك أيضا من الأخبار ؟
— عندى كالو فى قدمى من هذا الحذاء . وعندى جوع شديد . وعندى صداع أشد لكثرة ما تجرعته من كئوس الفودكا المترعة !
— ولماذا أفرطت فى الشراب ؟
— كى أتألف قلوب من التقيت بهم وجالستهم . ولكنى جلست فى خمس حانات . فكانت النتيجة كما ترين . وأنا لا أطيق هذه الفودكا
— ألم تثر ريبة أحد ؟
— لا أحد ، ما عدا رجل البار فى حانة منها . فقد راح ينظر الى نظرات فاحصة من عينيه الضيقتين الغائرتين فى وجهه المكتنز
فربتت ماريانا على رأسه معزية وقالت :
— لا بأس . أرجو لك حظا أسعد فى المرة القادمة ، وانى مسرورة لأنك استطعت أن تنظر الى المسألة من ناحيتها الفكاهية . والمهم أن تكون قد وجدت شيئا من اللذة فى هذا العمل
— لقد وجدت لذة فعلا . ولكنى أعرف طبعى . انى خليق أن أراجع نفسى وأستعيد تفاصيل ما حدث فاغتاظ وأشعر بالتعاسة

— لن أدع لك الفرصة لذلك . وأنا أيضا سأخبرك بكل ماصنعت في يومي. ولكن بعد الطعام ، فسيكون جاهزاً بعد دقيقة ولئن كنت لم أقم بطهوه ، ولكن قد يسرك أن تعلم انني أنا التي غسلت بنفسي آنية الطبخ

وانطلقت تقص عليه تفاصيل ما حدث في يومها . فكان نجدانوف يصغي اليها وهو شاخص البصر اليها . فتوقفت جملة مرات لتسأله لماذا ينظر اليها بهذا الشكل ، فلا يجيبها

وبعد الفراغ من الطعام عرضت عليه أن تقرأ له بصوت مرتفع . فوافق. ولكنها لم تكد تتم صفحة واحدة حتى نهض واقفا على حين غرة ثم ألقى بنفسه تحت قدميها . فنهضت واقفة . فطوق ركبتها بذراعيه وراحت تتدفق من فمه ألفاظ العاطفة الفائرة المحبوسة ، ويؤكد لها انه يريد أن يموت . بل انه واثق انه سوف يموت في وقت قريب

ولم تتحرك ماريانا . ولم تقاوم . بل أذعنت في هدوء تام لمعانقة المحموم لركبتها . وبهدوء ، بل وبعطف ومودة ، كانت ترمقه بنظرها من أعلى . ثم وضعت يديها كلتاهما فوق رأسه الذي كان يحاول جاهداً أن يدسه بين طيات ثوبها

وحدث ماكانت تتوقعه ، إذ كان لهدوئها الراسخ تأثير أعمق في نفسه وسلطان أقوى مما لو كانت دفعته عنها . فنهض من تلقاء نفسه وهو يغمغم :

— سامحيني ياماريانا على ما اقترفته اليوم ، وبالأمس . وقولي لي مرة أخرى انك مستعدة كل الاستعداد أن تنتظري الى أن أغدو جديراً بحبك

— لقد وعدتك بذلك . وأنا لا أخلف وعدي أبداً

— شكراً لك يا عزيزتي

ثم نهض نجدانوف فغادر حجرة ماريانا . وأقفلت هي الباب بالمفتاح

□

وبعد أسبوعين ، جلس نجدانوف في هذه الغرفة عينها يكتب خطاباً بعد منتصف الليل الى صديقه سيلين ، وقد انتثرت في الحجرة ثياب ملطخة بالطين ومن هذا الخطاب الطويل نورد الفقرة التالية التي تصور أحداث الأسبوعين :

« اني أكتب اليك ياعزيزي فلاديمير من غير أن أذكر لك عنواني . وسيحمل اليك هذه الرسالة البريد لا من الموضع الذي أنا فيه . إذ سيقوم رسول بارسالها من مكتب بريد يبعد عن هذا الموضع جملة أميال . فمكاني سر .

والبوح به يجر الويلات على أشخاص سواى . ولكن يكفى أن تعلم انى عشت هذين الأسبوعين فى مصنع كبير ومعى ماريانا . فقد هربنا من عند آل السيباجين فى اليوم نفسه الذى بعثت لك فيه خطابى الأخير . بيد ان اقامتنا هنا وقتية وسنرحل عند ما يحين وقت العمل . ولكن يبدو من الظروف ان هذا الوقت ليس قريب الوقوع

« وأحب أن أصارحك ياعزيزى فلاديمير أولا وقبل كل شىء انه ولو اننا هربنا معاً إلا اننا نعيش حتى الآن كأخ وأخت . وهى تحبنى وصارحتنى انها ستكون لى فى أى لحظة أشعر فيها ان من حقى أن أطلب اليها ذلك

« وللصبية يافلاديمير انى لاأشعر انلى هذا الحق ! انها تثق بى وبشرفى . وليس فى مقدورى أن أخدعها . وفى الوقت نفسه أنا واثق انى لم أحب ولن أحب شخصاً آخر أكثر مما أحبها . ولكن كيف يمكن أن أربط بين مصيرها ومصيرى ؟ كيف يمكن أن أربط بين كائن حى وجثة متحللة ، أو على الأقل جثة نصف ميتة ؟ ان ضميرى لا يمكن أن يسمح لى بذلك

« ويخيل الى انك تقول لنفسك الآن ان العاطفة لو كانت قوية لخرس الضمير . وهذه هى للصبية يافلاديمير . أنا جثة ليس لديها القدرة العاطفية الجارفة !

« انى أفكر جدياً أن أذهب فأتطوع فى أى حرب فى أى بقعة من بقاع الأرض بين ظالمين ومظلومين . لا لأكافح من أجل الحرية فحسب ، بل وأيضاً وقبل كل شىء كى أضع حداً لحياتى !

« انى انسان تعس خائر ! وما أعظم الفرق فى هذا بينى وبين مضيفنا . انه رجل مجدود . ينتمى الى معسكرنا ، ولكنه رزق هدوء النفس والطمأنينة لهذا تراه لا يتعجل الأشياء . وأنت تعرف طبيعتى النارية . فلو كان سواه فى مكانه لاصطدمت به . ولكن مع هذا الشخص كل اصطدام مستحيل . والسر فى ذلك ليس فى رأيه ، بل فى شخصيته . ومع حزمه وقوته يفيض حناناً علينا وبراً بنا . ويقضى جانباً كبيراً من وقته معنا ومع ماريانا على الخصوص

« ان ما يدهشنى انه على الرغم من الحب الذى بيننا لا نجد موضوعاً للحديث حين نكون وحدنا . فى حين أراها دائما تحدثه وتناقشه باهتمام ولا تظن انى أغار منه . فهو مهتم بايجاد عمل مناسب لها

« وأحب أيضاً أن أذكر لك ان كل شىء ممهد . فعند أول اشارة من يدى

يتم زواجنا فوراً وسراً بواسطة قسيس من ذوى قرباه . بيد ان هذا القران لن يسهل لى الأمور ولن يغير من الواقع شيئاً »

▭

وفى الصباح التالى أيقظته ماريانا وهى تجتاز غرفته لتذهب الى تتيانا . فلما عادت كان قد ارتدى ثيابه . وكان السرور والتطلع مرتسمين على وجهها فقالت له :

— أتدرى يا أليوشا انها بدأت فى مقاطعة ت . القريبة من هنا ؟

— ماذا ؟ ما الذى بدأ ؟

— الحركة . للوقعة . بافل أخبرنى بذلك . قال آن الفلاحين تمردوا وتجمعوا ورفضوا أداء الضرائب ، وها هو بافل فاسأله بنفسك

وأكد بافل ما قالته ماريانا . ثم أردف :

— لا شك ان السيد ماركيلوف له أصبع فى تلك الحركة . فهو غائب عن بيته منذ خمسة أيام

فتناول نجدانوف قبعته الهلهلة . فسألته ماريانا :

— الى أين من غير افطار ؟

— الى هناك طبعاً . الى مقاطعة ت

— ولكنى آتية معك . انتظر حتى آخذ شالى

وذهبت الى حجرتها لتحضر الشال . فرفع بافل حاجبيه ثم أسرع ليخطر سولومين . وقبل أن تخرج ماريانا من حجرتها الى حجرة نجدانوف كان سولومين قد حضر . فوجد نجدانوف واقفاً ووجهه الى النافذة وقد أراح جبهته على راحة يده التى كان مرفقها فوق حرف النافذة . فلمس سولومين كتفه . فاستدار بسرعة . فاذا بمنظره وهو غير حليق اللحية يبعث الرعب ، إذ كانت النظرة التي أطلت من عينيه نظرة غريبة تكاد تكون وحشية

وكان سولومين نفسه قد تغير فى الأسبوعين الأخيرين كثيراً . فاصفر وجهه واستطال . وكان الاضطراب يبدو عليه فى تلك اللحظة بقدر ما تسمح بذلك طبيعته الرزينة الهادئة . وقال لنجدانوف حين تواجهت نظراتهما :

— لم يستطع ماركيلوف أن يتحكم فى أعصابه فبدأ هذه الحركة من تلقاء نفسه . وقد تتمخض عن ضرر هائل له ولسواه

— انى أريد أن اذهب الى هناك وأرقب الحالة بنفسى

— وأنا أيضاً أريد أن أذهب !

وكان هذا الصوت صوت ماريانا وقد وقفت فى عتبة الباب ، فالتفت نحوها سولومين وقال بحزم :

— لا أستطيع أن أنصح لك بالذهاب يا ماريانا . فقد يؤدى هـذا الى افتضاح أمرك وأمرنا ، من غير قصد ، ومن غير موجب . فاتركى نجدانوف يذهب بمفرده ليرى الحالة مادامت هذه رغبته . وكلما عجل بالعودة كان أفضل. أما أنت فما لزوم ذهابك ؟

— لا أريد أن أفترق عنه

— ولـكنك ستكونين أداة تعطيل وارتباك له

فنظرت ماريانا الى نجدانوف الذى وقف جامداً وقد اتخذت سحنته مظهر الصلابة . عندئذ سألته ماريانا :

— ولنفرض انه كان ثمت خطر ؟

فابتسم سولومين وقال لها

— لا تخافى . متى صار هناك خطر حقيقى سأدعك تذهبين

فنزعت ماريانا شالهـا من غير أن تتكلم وجلست . فتحول سولومين الى نجدانوف وقال له برفق شديد :

— يحسن بك أن تفتح عينيك جيداً . وأنا أعتقد ان الأخبار فيها كثير من المبالغة . وأرجو منك أن تعود بأسرع ما تستطيع . أتعدنى بذلك ؟

— أجل . ما دام كل شخص هنا فيما يظهر يدين لك بالطاعة ، حتى ماريانا

ثم أسرع بالخروج من غير تحية . وإذا بافل يبرز من السلم المظلم ويتبعه عن كثب . فهل لديه أوامر بملازمته ؟

أما سولومين فجلس بجوار ماريانا وقال لها :

— أسمعت كلمات نجدانوف الأخيرة ؟

— أجل . انه مغيظ لأنى أصغى اليك أكثر مما أصغى اليه . وهذا هو الواقع . أنا أحبـه هو ولـكنى أطيعك أنت .. لأنه عزيز علىّ ... أما أنت فقريب منى !

قربت سولومين على يدها بلطف ، ثم قال :

— إن صح ان ماركيلوف له صلة بهذه الحركة . فقد قضى عليه . لأنى أعرفه رجلا مندفعاً لا يقف فى منتصف الطريق ولا يخفى ما فى نفســه من أجل غيره

— ولـكن ما الذى يحملك على اعتقاد انه لا ينجح ؟

— وحتى لو نجح . فالقاعدة فى جميع هـذه الحركات ان من يبدأونها يذهبون ضحيتها حتى ولو نجحوا . ويستمر الحال كذلك الى الصف العاشر أحياناً

— إذن أنت تعتقد اننا لن نعيش لنرى النصر ؟

— النصر النهائى الذى يحقق مثلنا الـكاملة ؟ كلا لن نراه بأعيننا هذه . ولـكن فى استطاعتنا أن نراه بعين البصيرة

— إذن لماذا تسير فى هذا الطريق ؟

— لأنه لا طريق سواه

— ألم تجد لى عملا بعد ألتحق به ؟

— هل أنت متلهفة الى هذا الحد على الانتقال من هنا ؟

— أريد فقط أن أقوم بعمل نافع

— ولـكنك نافعة هنا يا ماريانا . فلا تفارقينا فى الوقت الحاضر

وفى هذه اللحظة طرقت الباب تتيانا ، فسألها سولومين ماذا تريد ، فأجابت وهى تضحك وتلوح بيديها :

— حضرت امرأة وسألت عن السيد نجدانوف . فقلت لها انى لا أعرف أحداً بهذا الاسم . وإذا بها ...

— ولـكن من هى ؟

— تلك المرأة طبعاً . لقد كتبت اسمها على هذه الورقة وطلبت منى أن أحضرها الى هنـا ، وأبدت استعدادها إن لم يكن السيد نجدانوف موجوداً الآن أن تنتظر عودته . وهذه هى الورقة

وكان المـكتوب على الورقة بحروف كبيرة كلة واحدة : « ماشورينا »

فقال سولومين :

— أدخليها . ولا أظنك تمانعين فى ذلك يا ماريانا . فهى واحدة منا

وبعد بضع دقائق ظهرت ماشورينا عند الباب ، فى نفس الزى الذى رأيناها ترتديه فى مفتتح هذه الرواية

سألت ماشورينا وهى عند الباب :

— أليس نجدانوف موجوداً ؟

ثم فطنت لوجود سولومين فتقدمت نحوه وبسطت اليه يدها . ثم رمقت ماريانا بنظرة جانبية وسألته :

— كيف حالك ياسولومين ؟

— انه سيعود بعد قليل . ولكن خبريني أولا كيف عرفت ؟

— أخبرني ماركيلوف . ثم ان عدداً لا بأس به من أهل البلدة يعرفون الآن يقيناً انه يقيم هنا

— حقاً ؟

— نعم . فلا شك ان أحداً أفشي السر . ثم ان نجدانوف نفسه افتضح

— رغم كل هذه الملابس التنكرية ! ولكن اسمحى لى أن أقوم بالتقديم . الآنسة سينيتسكا . والآنسة ماشورينا !

فأومأت ماشورينا برأسها إيماء يسيراً ثم جلست وقالت :

— إنى أحمل رسالة لنجدانوف ورسالة أخرى لك ياسولومين

— رسالة ! وممن ؟

— من شخص معروف لك جيداً ... وهل كل شيء على استعداد ؟

— بل لاشيء مطلقاً على استعداد !

ففتحت ماشورينا عينيها أقصى ما استطاعت وقالت :

— مطلقاً ؟

— مطلقاً !

— وهل هذا ما تريدنى أن أنقله عنك للمسئولين ؟

— نعم .. !

فشردت ماشورينا متفكرة ثم أخرجت من جيبها سيجارة أشعلتها وقالت :

— كانوا يتوقعون رداً آخر . يختلف اختلافاً كلياً عن ذلك . وعلى كل حال هذا شأنك أنت . ولا أنوى أن أطيل المكث هنا . فقد أردت فقط أن أقابل نجدانوف وأسلمه الخطاب الذى حملته اليه

— والى أين أنت راحلة من هنا ؟

— الى مكان بعيد جداً

(والواقع انها كانت ذاهبة الى جنيف ، ولكنها لم تصارح سولومين لأنها لا تثق به ولأن ماريانا موجودة معهما . فهي على جهلها كل الجهل للغة الألمانية ستبعث الى جنيف لتسلم شخصاً مجهولا لها ٢٧٩ روبلا مقابل ورقة عليها رسم عنقود عنب !)

— وأين استرودوموف ؟ هل هو معك ؟

— كلا ولكنه قريب من هنا . وسيحضر بمجرد الحاجة اليه

— وكيف وصلت الى هنا ؟

— فى عربة بالطبع . أم ترى كيف كنت تريدنى أن أحضر ؟

وفى هذه اللحظة سمع صوت عامل ينادى سولومين لاحتياجهم فى المصنع اليه فاعتذر وذهب . فثبتت ماشورينا نظراتها على ماريانا مدة طويلة . الى أن شعرت ماريانا بالحرج . وعندئذ صاحت بها ماشورينا فجأة بصوت جاف :

— لا تؤاخذينى فأنا امرأة من العامة ولا أعرف اللف . فلا تغضبى منى ولا حاجة بك للرد ان لم ترغبى فى ذلك . هل أنت الفتاة التى هربت من آل سيبياجين مع نجدانوف ؟

— أجل ...

— إذن أعطينى يدك . لا بد انك طيبة مادام يحبك

فشدت ماشورينا على يد ماريانا بطريقتها المسترجلة . فسألتها ماريانا :

— أتعرفينه منذ زمن بعيد ؟

— منذ أيام بطرسبورج . وكذلك أخبرنى ماركيلوف ...

— ماركيلوف ؟ هل رأيته أخيراً ؟

— أجل . ولكنه رحل الآن

— الى أين ؟

— الى حيث صدرت إليه الأوامر أن يرحل

— آه يا آنسة ماشورينا . كم أخاف عليه !

— أولا أنا لست آنسة . فاسقطى هذه الكلمة . وثانياً أنا لا أريدك أن تستعملى كلمة أخاف . اسقطيها أيضاً . وحين تكفين عن الخوف على نفسك سوف لا تخافين على الناس . وربما كان من السهل على ذلك لأنى قبيحة الشكل أما أنت فجميلة . ولهذا يصعب عليك ذلك . وأقول لك إن ماركيلوف أخبرنى انكما سعيدان معاً

— هل سيقتلونه أم يرسلونه الى سيبيريا ؟

— وهل لايعود الناس من سيبيريا ؟ أما أن يفقد الإنسان حياته ، فربما كان هذا حلا سعيداً لمتاعب بعض الناس . ولم تكن حياة ماركيلوف مفرطة فى الحلاوة !

فرمقتها ماريانا بنظرة فاحصة . وعندئذ قالت ماشورينا :

— ما أجملك ! إنك أشبه بطائر ! ولا أظن نجدانوف سيحضر بسرعة ولذا سوف أترك الرسالة معك . ولكن خبرينى هل تحبينه ؟

— أجل

— لا حاجة بى أن أسألك هل يحبك هو . هاك الخطاب

ثم راحت تفتش فى جيوبها فى لهفة . وأخيراً قررت أنها فقدته . ثم نهضت لتنصرف وصفقت الباب وراءها . فتركت ماريانا مشدوهة فى وسط الحجرة

— لا ريب عندى أن هذه المرأة تحبه أكثر مما أحبه أنا ! ثم ماذا كانت تريد بتلميحاتها عن ماركيلوف ؟ ولماذا اختفى سولومين فجأة ولم يعد ؟ ولماذا شبهتنى بالطيور ؟ أهو تلميح الى الخفة والنزق والهروب ؟ لماذا لم تشبهنى مباشرة بالدمية ؟

فقد أحست ماريانا أن هــذه المرأة تحتقرها وتظن حياتها مع نجدانوف مغامرة منحلة ، وأنها لا تصلح مثلها لحياة الـكفاح

ثم اتجه ذهنها بعد ذلك الى سولومين فجعلت تتساءل هل هو حقيقة ثورى مثل هؤلاء ؟ فان من يراه يخامره الاعتقاد أنه لا ينظر إلى المسألة كلها نظرة جدية . وانتقل تفكيرها بعد ذلك الى ماشورينا ونجدانوف فأوشكت أن تشعر بالغيرة لولا أنها تذكرت وجه ماشورينا فهزت كتفيها باستخفاف.

وطال انتظار ماريانا وهى جالسة بمفردها، إلى أن سمعت وقع أقدام شخصين يصعدان السلم ببطء . فتعلق بصرها بالباب

واقتربت الخطوات . ثم انفتح الباب ... وإذا نجدانوف متكئاً إلى ذراع بافل الذى يحمله من تحت أبطه . وكان شاحباً شحوب الأموات، من غير قبعة وهو ينظر نظرة خاليـة من الشعور . وأجلسه بافل على الأريكة . وجعلت ماريانا تصيح :

— ما معنى هذا ؟ ماذا حدث له ؟ أهو مريض ؟

فابتسم بافل بهدوء ونظر إليها من فوق كتفه قائلا :

— لا حاجة للقلق . سيكون على ما يرام بعد قليل . كل ما هناك أنه ليس متعوداً

— ولـكن ماذا به ؟

— سكران قليلا . فقد أكثر من الشراب على معدة خاوية . وهذا كل ما هناك

فانحنت ماريانا فوق نجدانوف الذى كان مضطجعاً على الأريكة ، ورأسه مائل فوق صدره ، وقد أقفل عينيه ، أما رائحة الفودكا التى تفوح منه فكانت نفاذة . كان المسكين فى حالة سكر تام . وجعلت تناديه فلا يجيب إلا بهمهمة

وكادت تبكى ، لولا أن بافل أكد لها أن النوم ساعة أوساعتين سيرده الى حالته الطبيعية فيصحو نشطاً معافى

وعندئذ أرقدته ماريانا براحة . ووقفت تنظر إليه متعجبة أشـد العجب كيف انتهى به الأمر إلى هذه الحالة



موقف دقيق

دخل باكلين على ماريانا بعد قليل فانحنى لها انحناء عميقاً وهو يحاول أن يخفي ما ارتسم على وجهه من علامات الرعب

— انى من أصدقاء زوجك وكذلك من أصدقاء سولومين . وقد سمعت ان نجدانوف نائم ومتوعك قليلا . وأنا للأسف أتيت بأخبار سيئة . وقد أطلعت سولومين على جانب منها . وأخشى انه لا بد من اتخاذ خطوات حاسمة

وتداعى صوت باكلين فجأة كأنه رجل طال تعذيبه بالعطش . ولاشك ان الأنباء التي يحملها مكدرة جداً . إذ قبض بعض الفلاحين على ماركيلوف وساقوه الى البلدة ، كذلك خان بعضهم جولوشكين ووشى به فقبض عليه . ولما قبض عليه اعترف على الآخرين ، واعترف بكل شيء . وليس هناك أدنى شك انه دل على صلة نجدانوف بالحركة ، وعلى محل اقامته . ولهذا من المتوقع أن يهاجم البوليس المصنع فى أى لحظة . كذلك سولومين كان فى خطر

— ... وأما عن نفسى ، فأنا أعجب كيف انى مازلت مطلق السراح ، هذا ولو انى لم أكن يوماً من الأيام مهتما اهتماماً جدياً بالمسائل السياسية ولم أشترك فى أى خطة . وقد وجدت من واجبي أن أنذركم قبل حضور البوليس . كى تتخذوا ما يمكنكم اتخاذه من التدابير ازاء ذلك

وظلت ماريانا ساكتة الى أن فرغ باكلين من كلامه . ولم يظهر عليها الفزع . بل كانت فى غاية الهدوء . ومع هذا كان لابد من صنع شيء . فثبتت نظرها على سولومين الذى دخل فى تلك اللحظة . فوجدته أيضاً فى غاية الهدوء . وكل ماهناك ان ابتسامته المألوفة فارقت شفتيه . وأدرك سولومين معنى نظرتها . انها تسأله ماذا ينبغى أن تفعل ، فقال :

— ان الموقف محير . ولكنى أعتقد ان اختفاء نجدانوف فترة من الزمن سوف لا يضيره . ولكن بهذه المناسبة كيف عرفت انه هنا يامستر باكلين ؟

فأشار باكلين بيده اشارة غامضة وقال :

ـــ أخبرني بذلك شخص ما . كان قد رآه يبث الدعاية في المنطقة المجاورة، فتبعه الى هنا بحسن نية ، لأنه من الأنصار . ويظهر ان صديقنا نجدانوف لم يكن مفرطاً في الحذر كل الافراط

ـــ لا جدوى من القاء اللوم عليه الآن . وهو للأسف في حالة لاتسمح لنا بالتشاور معه . ولكنه سيكون غداً صباحاً على مايرام . وثق ان البوليس عندنا ليس من الهمة والنشاط كما تتصور . وسوف تختفين معه ياماريانا . ويجب أن ندبر تفاصيل الخطة معاً

ـــ ان عندي اقتراح يامستر سولومين . وهو أن تعطيني عربة فأذهب على الفور لدى آل سيبياجين ...

ـــ لماذا ؟ ألك بهم معرفة ؟

ـــ لا أعرفهم مطلقاً ولكن أرجو أن تنظر لاقتراحي بعين الاعتبار . ان ماركيلوف شقيق زوجة سيبياجين . فهل من المعقول ألا يتحرك لانقاذه . وأما من جهة نجدانوف ، فمهما كان غضب سيبياجين عليه فلا أظنه يتخلى عن انقاذه أيضاً لأنه أصبح نسيبه بزواجه منك.

فقالت ماريانا بكل ثبات انهما لم يتزوجا ...

ـــ ماذا ؟! ألم تستطيعا تدبير هذه المسألة كل هــذا الوقت ؟ لا بأس . نستطيع أن نخالف الحقيقة قليلا . ثم أنتما ستتزوجان فوراً . إذ لا يوجد فيما يبدو حل آخر . ولا سيما ان سيبياجين لم يطاردكما لغاية الآن مما يدل على ان فيه سماحة . وإن كنت أرى ان هذا التعبير لم يرق لديك ياسيدتي ! فلماذا لا نستفيد من هذه الصفة فيه ؟

فرفعت ماريانا رأسها ومرت بيدها في شعرها ، ثم قالت :

ـــ لك أن تستغل خلق سيبياجين كما تشاء لمصلحة ماركيلوف أو لمصلحتك. أما نجدانوف وأنا فلا نريد أي حماية من سيبياجين . فنحن لم نغادر بيته لنعود فنطرقه في صورة المتسولين !

ـــ يؤسفني جداً أن أسمع منك هذا القرار . لأن سيبياجين رجل واسع النفوذ . وما رأيك أنت يامستر سولومين ؟

ـــ رأيي الخاص انه مشروع عملي . وإن كان أملي في نجاحه ليس كبيراً.

ولكن لا ضير من المحاولة على كل حال

— أجل . فلنفرض أنهم رفضونى من قفاى وألقوا بى خارجاً ؟ أى ضرر فى هذا ياسيدى ؟ والساعة الآن الخامسة فآمر باعداد الخيل

ودخلت ماريانا على نجدانوف وراحت تهزه عسى أن يفيق ، فتنبه قليلا ، فوضحت له الموضــوع فى الوقت الذى كان باكلين فى طريقه الى ضيعة آل سيبياجين . ولما استطاع نجدانوف أن يعى بوضوح معنى ما تلقيه على سمعه ، قال بصوت ضعيف :

— ولكن لماذا ذهب الى سيبياجين بالذات ؟

— ليحثه على التدخل بنفوذه لدى البوليس

فجلس نجدانوف وقد طار من رأسه كل أثر للخمر نهائياً

— من أجلنا ؟

— بل من أجل ماركيلوف . وكان يريد أن يوسطه من أجلنا أيضاً بيد أنى منعته . فهل أحسنت صنعاً ياعزيزى ؟

فجعل نجدانوف يكرر عبارتها الأخيرة بعصبية . ثم مد اليها ذراعيه وهو جالس لايستطيع النهوض على قدميه ، وانهمرت دموعه واستولت عليه رعدة حيرتها وأخافتها . وتلقفته بين ذراعيها وتركته يبكى على كتفها فى انتظار مايقوله بعد ذلك وهى تردد :

— ماذا أصابك ياعزيزى ؟ لماذا تبكى ؟ ألأنك عدت فى حالة غير طبيعية ؟ أم أنت حزين من أجل ماركيلوف ، أم خائف عليه ، أم على نفسك ؟ أم تراك تبكى على آمالنا الضائعة ؟ ما كان ينبغى أن نتوقع أن نسير فى كفاحنا على بساط من الورد باستمرار

فرفع نجدانوف رأسه فجأة وتغلب على البكاء بمشقة ثم قال :

— لست خائفاً ياماريانا على أحد . بل أنا آسف . آسف لك أنت ياماريانا. لأنك ربطت مصيرك برجل ليس أهلا لك

— ولماذا ليس أهلا لى ؟

— لأنه على الأقل ينوح باكياً عند الشدائد

— لست أنت الذى يبكى . وإنما هى أعصابك !

— وهل يمكن أن تفصلى بينى وبين أعصابى ؟ انظرى فى عينى يا ماريانا

واصدقيني ، ألا تشعرين الآن بالندم على انك هربت معي ؟
— كلا .. لا أشعر بالندم مطلقاً ..
— وهل تذهبين معي عن طيب خاطر الى أي مكان ؟
— أجل . الى أي مكان . فقد عاهدتك على ذلك . وطالما ظللت الرجل الذي أحبه فلن أنقض عهدي مهما حدث ..
وعندئذ قال نجدانوف في نفسه :
— في المرات السابقة كانت تترك نفسها عند ما أعانقها كالتمثال . أما الآن فأحس عند عناقها ان شيئاً داخل بدنها يتراجع بعيداً عني ، بكل رقة !
وكأنما أراد أن يجرب ، فأطلقها من ذراعيه ، فاذا بها تبادر بالانسحاب قليلا فقال :
— إن كنا ننوي أن نهرب معاً قبل أن يدهمنا البوليس ، أرى من المستحسن أن نتزوج أولا . فربما لم نجد قسيساً يقوم بذلك الزواج بصفة سرية مثل الأب سوزيم ابن عم سولومين
— أنا على تمام الاستعداد
— يا للشجاعة الرومانية ! يا له من احساس بالواجب
— يجب أن نخطر سولومين فوراً بقرارنا
— نعم ولكنه معرض أيضاً للقبض عليه . إذ يظهر لي ان نصيبه الفعلي في الحركة كبير . وانه يعلم أكثر مما نعلم نحن
— ربما . فهو لايتكلم عن نفسه أبداً !
— ها ها ! أي ليس مثلي ! أتدرين يا ماريانا انيما كنت لآسف لو انك ربطت حياتك برجل من طراز سولومين ... أو بسولومين نفسه !
— لا حق لك في أن تقول ذلك
— ماذا تعنين ، أفهم من اعتراضك انك تحبينني أن أفهم أن الموضوع يضايقك عموماً ؟
— قلت لا حق لك
فأطرق نجدانوف برأسه ، ثم سألها بصوت متغير نوعاً :
— ماريانا ؟.. لو انني طلبت منك الآن ... في هذه اللحظة ...
— ماذا ؟ ما الذي تطلبه ؟

— أنت تعرفين عن أي شيء أتكلم ... ولكن كلا ... لن أطلب منك شيئاً . والآن استودعك الله !

ونهض فخرج . فلم تحاول ماريانا أن تستبقيه

خرج نجدانوف الى حجرته الخاصة فجلس على الأريكة وغطى وجهه بيديه. كان خائفاً من أفكاره الخاصة فحاول أن يكف عن التفكير . وأحس كأن سحابة من الظلام ، أو يداً سفلية تمتد من تحت الأرض فتظلل حياته وتتشبث بجذور كيانه بحيث لاتدع له سبيلا الى الفرار

كان يعلم ان المخلوقة العزيزة العذبة التي تركها في الحجرة الأخرى سوف لا تأتي اليه حيث هو الآن . وكان يعلم أيضاً انه لايجد الجرأة على أن يذهب اليها لماذا ؟

أي شيء يمكنه أن يقول لها ؟

▭

كانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء وقد جلس في حجرة الاستقبال سيبياجين وزوجته وكولوميتزيف يلعبون الورق، عندما دخل الحاجب وأعلن أن سيداً اسمه مستر باكلين حضر لمقابلة رب البيت في مسألة عاجلة

ولما دخل سيبياجين مكتبه ووقع نظره على شخص باكلين الضئيل المتواضع، استولت عليه العجرفة الوزارية التي تظهر في صورة التواضع مع الأصاغر . فدعاه للجلوس وطلب إليه أن يشرح له سبب زيارته . وقبل أن يفتح باكلين فمه قال له :

— عفوك دقيقة واحدة . لقد رأيتك من قبل ! ولكن لا أذكر أين

— هذا صحيح ياصاحب السعادة . فقد رأيتني مرة في بيت شخص يبدو للأسف الشديد انك بعدها ...

— عند نجدانوف ؟ تذكرت الآن . هل أنت حاضر من طرفه ؟

— كلا . بل اني على العكس ...

— هذا أحسن . والا لكنت طلبت منك مغادرة البيت فوراً . فأنا لا أسمح بأي سفارة بيني وبين نجدانوف لأنه أهانني بطريقة لا تنسى. وأنا طبعاً تساميت فوق شعور الانتقام . ولكنى لا أقبل أن أسمع عنه شيئاً لاهو ولا تلك الفتاة المخبولة التي سولت لها نفسها أن تغادر بيتاً أعزها وآواها وصانها كي تغدو

عشيقة أفاق مغمور ! يكفيهما أنى اكتفيت بنسيانهما

— لقد أوضحت لسعادتكم أنى لم أحضر بخصوصهما بالذات . ولكن بهذه المناسبة أحب أن أقول لك انهما تزوجا زواجاً شرعياً ...

— لا أهمية لهذا فى نظرى . ولكن ما هى المسألة العاجلة التى حضرت بسببها ؟

— ان شقيق زوجتك قبض عليه وهو يرسف الآن فى الأغلال . فما أن سمعت بذلك حتى حضرت فوراً لأخبرك عسى أن تنقذه

— أشكرك كثيراً . ولكن هذا الرجل الذى يدوس حرمة القوانين ونظم الدولة لا يمكن مهما كانت صلة قرابته بى قوية أن أتحرك لانقاذه . فهو مجرم . واعلم يا سيدى أنى سآمر باعداد العربة فوراً واذهب إلى البلدة لا لأنقذه بل...

— حنانيك يا صاحب السعادة !

— هذه هى مبادئى يا سيدى . فأرجوك أن لا تضايقنى باعتراضاتك !

وجذب سيباجين الجرس فدخل خادم أصدر إليه أوامره باعداد العربة ثم راح يذرع الحجرة بخطوات واسعة فى غضب ، إلى أن انفتح الباب ودخلت مدام سيباجين وفى أعقابها كولوميتزيف

— ماذا حدث يابوريس ؟ لماذا أمرت باعداد العربة ؟

فتقدم نحوها سيباجين وأمسك بذراعها من فوق الكوع وقال :

— تشجعى يا عزيزتى ! لقد قبض على أخيك !

— أخى أنا ؟ ولكن لماذا ؟

— لأنه كان ينشر بين الفلاحين بالاشتراكية . فقبضوا عليه وسلموه للشرطة . وقد جاء هذا السيد يخبرنى بذلك

— وهل تريد أن تذهب الى المدينة فى هذه الساعة المتأخرة ؟

— أظن الحاكم لم ينم بعد

وعندئذ قال كولوميتزيف بغيظ :

— كلى ثقة أن هـذا اللطم نجدانوف له صلة بالمسألة . فهم جميعاً عصابة واحدة . ألم يقبضوا عليه ؟

— لا أعلم . ولا أريد أن أعلم . والظاهر أنهما تزوجا . لقد أخبرنى هذا السيد

— أخبرك ؟ اذن فهو يعرفهما . ويعرف أين هما ! أتعرف أين يقيمان ؟

لماذا لا تجيب ؟ أجبنى ! أتعرف ؟
— وبفرض أننى أعرف لا ينبغى أن أخبرك !
— أسمعت يابوريس ؟ إنه أيضا من العصابة عينها
وفى هذه اللحظة دخل الحاجب يعلن أن العربة أعدت . فبذلت فالنتينا ميهايلوفنا كل ما فى وسعها لاقناع زوجها بعدم الذهاب ليلا خوفاً عليه من البرد الشديد ومن حوادث الطريق فى الظلام . وقالت له بالفرنسية إنها لا تستبعد أن يكون هناك كمين منصوب فأذعن لها وصرف العربة على أن تعد فى السادسة صباحاً . كما أمر بصرف عربة باكلين . فاعترض باكلين ، فقال له ببرود :
— سآخذك معى غداً إلى مقر الحاكم ! وسيتولى الخدم تقديم ما يلزمك من الفودكا هذه الليلة . ماذا تقول ؟ ارفع صوتك قليلا ! لا تحب الفودكا ؟ فى هذه الحالة خذه يا تيودور فوراً إلى حجرة النوم الخضراء
ومن غير مناقشة وجد باكلين نفسه محبوساً فى حجرة النوم الخضراء ثم أقفل الخادم بابها بالمفتاح ! وراح يوبخ نفسه على مشروعه المنكود ثم استلقى على الفراش فنام نوماً سيئاً جداً . حتى إذا كانت الساعة الخامسة أوقظ من نومه وقدم له الخادم فنجاناً من القهوة . وبعد ذلك جاءوا إليه بالافطار فوق صينية فلما فرغ منه — ولم يصب فى الواقع إلا قليلا جداً — أخذوه إلى الطابق الأسفل وهناك وجد العربة واقفة فى الانتظار عند الباب . ورأى كذلك عربة كولوميتزيف المفتوحة . ثم ظهر على السلم سيبياجين متدثراً بعباءة من صوف الجمل
وحيا سيبياجين باكلين بكل ظرف . ثم أشار بيده إلى العربة وطلب إليه أن يركب . ولما أطلت فالنتينا ميهايلوفنا وهى ما تزال فى ثياب النوم من فرجة صغيرة فى نافذة مخدعها لوح لها سيبياجين بيده ، فقالت له بالفرنسية :
— ترفق بأخى ...
فطوح بيده ولم يجب إجابة واضحة . فنظر نحوها كولوميتزيف وقال بالفرنسية :
— اطمئنى ... !
وانطلقت العربتان . وظل الصمت سائداً بعض الوقت إلى أن سأل سيبياجين
— ألا تدرى فى أى ظرف بالضبط قبضوا عليه ؟ وأين حدث ذلك ؟
— سمعت أنه قبض عليه فى منطقة ت —

— من الذى قال لك ذلك ؟
— شخص ما ...
— انه شخص طبعاً . فليس من المحتمل أن يكون الذي أخبرك عصفور ولـكن من هو هذا الشخص ؟
— اسمه ... اسمه ... إلياس فتش . وهو رجل أمين جداً ومستقيم . فبمجرد ما أن عرفت منه النبأ ـ وهو موظف فى ديوان الحاكم ـ قررت أن أسرع إليك لتنقذه ...
وساد الصمت مرة أخرى إلى أن قطعه سيياجين أيضاً قائلا :
— أظنك بالأمس تحدثت عن صديقك ... ذلك الشخص الذى تزوج بنت أختى ... ولـكن ألا تراهما ؟ وهل يقيمان فى مكان قريب من هنا ؟
— رأيتهما مرة واحدة فقط يا صاحب السعادة . وهما بالتأكيد لا يقيمان بعيداً من هنا
— أنت تدرك طبعاً أنى لا أهتم بهما . ولـكنى أعتقد أن هذا الزواج ضرب من الحماقة . وأن الذى جمع بينهما هو الرأى السياسى فى الغالب
— هذا هو رأيي أيضاً يا صاحب السعادة
— ان نجدانوف ثورى . وأنصفه فأقول إنه لم يحاول اخفاءذلك.ولا أشك فى أنه ذو أصبع فى هذه القضية . وسوف يصلون إليه . وربما تحتم علىّ أن أتوسط من أجله هو أيضاً ...
فوقع باكلين فى هذا الفخ الساذج . وضم يديه إلى صدره وقال متوسلا:
— أناشدك الرحمة يا صاحب السعادة أن تشمله بحمايتك
— أتظن هذا مناسباً ؟
— ان لم يكن من أجله فمن أجل بنت شقيقتك ، زوجته !
— أراك صديقاً مخلصاً له . وهذه مزية طيبة أيها الشباب ! لقد قلت على ما أذكر أنهما يسكنان بالقرب من هنا ؟
— نعم يا صاحب السعادة . فى مؤسسة كبيرة جداً ...
ثم تنبه لخطئه فعض على لسانه . ولـكن سيياجين قال باستخفاف :
— فى مصنع سولومين طبعاً . كنت أعرف هذا طول الوقت. فليس لك أن تلوم نفسك لأنك تكلمت !

والله يعلم أنه لم يكن يدرى . وإنما استنتج هذا من كلام باكلين الساذج

▭

وكان حاكم مقاطعة س . جنرالا طيب القلب وجيه المنظر عف اليد ، نشأ نشأة حسنة مثقفة . وقد أمر بادخال ضيفيه الى مكتبه ثم لحق بهما هناك بملابس المنزل حيث صافحهما بحرارة . أما باكلين فبقى بالحجرة الخارجية

وتولى سيباجين شرح الموضوع الذى حضر من أجله . فضرب الحاكم جبهته بيده وظهرت عليه أمارات الأسف ثم قال :

— ويحى ! إنه هنا الآن . ولكنه لا بد أن يرحل اليوم . فهذا النوع من المقبوض عليهم لا يمكن أن نحتجزه عندنا بل نرسله إلى الرئاسة فوراً . يا لزوجتك المسكينة !

— أريد أن أقابله هنا أمامك . إن لم يكن هذا مخالفاً للقواعد

— إن القواعد لم تخلق لأمثالك . سأحضره حالا

وبعد أن أصدر أمره الى ياوره المتحذلق بذلك ، التفت الى سيبياجين

— تصور يا عزيزى أن الفلاحين كادوا يقتلون شقيق زوجتك لقد قيدوا يديه خلف ظهره وأتوا به إلى هنا فى عربة سباخ ! ومن العجيب أنه غير حانق عليهم ! بل ان هدوءه أدهشنى . وسترى بنفسك الآن

فتطوع كولوميتزيف وقال :

— هؤلاء الحادثين هم النوع الخطر

— على فكرة يا كولوميتزيف . يجب أن أتحدث اليك فان الفلاح الذى كان مديناً لك وجاء الى هنا منذ أيام ليشكوك . . .

— ماشأنه ؟

— شنق نفسه !

— متى ؟ . .

— ليس المهم متى . المهم أنها مسألة سيئة

فهز كولوميتزيف كتفيه ومشى يتبختر الى النافذة . وعندئذ انفتح الباب ودخل الياور الأنيق وفى صحبته ماركيلوف

وكان ماركيلوف كما قال الحاكم عنه هادئاً هدوءا غير طبيعى وغير مكترث على الاطلاق . وكان بادى الازدراء للياور الألمانى . كان وجهه قذراً مغطى

بالـكدمات . وملابسه ممزقة . فنظر اليه سيباجين ملياً ثم تقدم نحوه خطوتين وقال :

— لا حاجة بي أن أقول لك كم أدهشنا سلوكك . ولـكنك أردت هذا الدمار لنفسك ! لقد أتيت لأحاول إقناعك بسلوك طريق المنطق والتعقل ، قياماً بواجب الصداقة والشرف ما زال في وسعك أن تنقذ نفسك وثق أنني سأبذل كل ما أملك من نفوذ لمساعدتك . ولـكن بشرط أن تندم ندماً صادقاً على ضلالك وتعترف اعترافاً كاملا شاملا يكون له وقعه الحسن في الدوائر العليا

وهنا التفت ماركيلوف الى الحاكم وقال له بكل هدوء :

— ياصاحب السعادة . ظننت أنك أرسلت تستدعيني لأنك تريد أن تستجوبني مرة أخرى . ولـكن إن كان حضوري هنا تلبية لرغبـة مستر سيباجين فقط ، فأرجو منك أن تأمر باعادتي . فالتفاهم بيننا مستحيل . إنه يتكلم بالصينية !

فصرخ كولوميتزيف بغضب :

— وإثارتك الفلاحين ، ألم تكن صينية ؟

— إن كنت تريد يازوج شقيقتي أن تعرف آرائي الحقيقية فها هي . إني أعترف أن من حق الفلاحين أن يقبضوا على ويسلموني للسلطات ما داموا لا يوافقون على وجهة نظري التي حاولت تبشيرهم بها . فأنا الملوم لأنني ذهبت إليهم من تلقاء نفسي . وأما الحـكومة فان خطر لها أن ترسلني الى سيبيريا ، فسأذهب بدون تذمر ، مع أنني لا أعتبر نفسي مذنباً . فالحـكومة إذ تفعل هذا إنما تقوم بمهمتها ، وهي الدفاع عن نفسها وحماية سلامتها

— ألا تنوي أن تتوب ؟

— دعني من توبتك ! لا شأن لك بسريرتي وضميري

— لقد كنت دائماً هكذا لا تصغي أبداً لصوت العقل . إن أمامك فرصة لا نظير لها كي تخرج من هذا المأزق فنحن نعطف عليك وأنت تكرهنا

فأطرق ماركيلوف برأسه كان مضطرب الأعماق بالرغم من هدوئه الظاهري . وكان اضطرابه لا خوفاً على نفسه بل لأنه وشي به

وانتحى سيبياجين بالحاكم جانباً وراحا يتهامسان . واتفقا على توفير مايمكن من سبل الراحة لهذا المعتوه . وأوشك سيبياجين أن ينصرف ، لولا أن كولوميتزيف ذكره بالشخص الآخر . فتمهل وقال للحاكم :

— لقد أتيت معي برجل آخر أرجو أن تأذن له بالدخول

وبعد دقيقة واحدة كان باكلين ماثلا في المكتب . فانحنى للحاكم ، ثم لمح ماركيلوف ولكنه لم يجسر على مخاطبته . وتولى سيبياجين الكلام قائلا :

— إن هذا الشخص يا صاحب السعادة هو مستر باكلين . وهو صديق حميم لشخص يؤسفني أن أقول إنه كان معلماً خصوصياً لولدي ثم هرب بابنة أختي . وأظنك سمعت بذلك واسم ذلك الشخص نجدانوف . وهو ثوري خطر . ولا بد أن له صلة بحركة الدعاية هذه . ولكنه مختبيء كما عرفت من السيد باكلين في مصنع يديره شخص اسمه سولومين

فلما سمع ماركيلوف ذلك شمل باكلين بنظرة ازدراء . وحاول باكلين أن يذكر سيبياجين بما سبق أن قال له من أنه كان يعرف ذلك من قبل . ولكن سيبياجين لم يلتفت اليه . وصاح ماركيلوف يقول للحاكم :

— أرجو منك أن تأمر باخراجي من هذا الجو الخانق !

فانتهره الحاكم والتفت الى سيبياجين يسأله عن تفاصيل محل إقامة نجدانوف ثم التفت الحاكم الى ماركيلوف وسأله هل يعرف نجدانوف وسولومين ، فأجابه :

— كأني بك تسألني هل تعرف كونفشيوس وشيشرون !

— أنت شخص لا فائدة ترجى منه ! عودوا به الى الحبس

وتوسل باكلين راكعاً على ركبتيه الى سيبياجين والحاكم أن يتركا نجدانوف وشأنه ، ولو من أجل خاطر زوجته . ولكن سيبياجين صم أذنيه ، وجعل كولوميتزيف يخطب بعصبية عن واجب الولاء والضمير وسحق المتمردين الخونة . فأمر الحاكم على الفور بارسال ثلة من الجنود الى المصنع كي تقبض على نجدانوف . وعندئذ ذكره كولوميتزيف برأس الأفعى سولومين الذي كان يحقد عليه جداً لترفعه ولكن الحاكم قرر التريث في ذلك الى أن تتجمع الأدلة الكافية

وبعد ذلك أطلقوا [illegible]

اعتراف

عند ما خرجت ماريانا ذلك الصباح من حجرتها وجدت نجدانوف جالساً فوق الأريكة بملابسه الكاملة فى حالة يأس وانهيار . فأدركت أنه لم يخلع ثيابه ولم ينم طول الليل . فلما سألته عن ذلك ، رفع جفنيه الثقيلين يبطء وقال :

— لم أستطع أن أنم بعد أن رأيت سولومين يدخل حجرتك ليلا !

— أتغار منه ؟ يا لها من فكرة ! لقد مكث معى ربع ساعة فقط أخبرنى فيها انه أعد كل شىء لحضور القسيس

— أعلم انه لم يمكث سوى ربع ساعة . فقد رأيته يخرج . ولست غيراناً . ومع هذا لم أستطع أن أنام . لبثت أفكر ... وأفكر ... وأفكر ... فيك ... وفيه ... وفى نفسى

— وماذا كانت نتيجة كل هذا التفكير ؟

— هل أقول لك ؟

— أجل قل لى

— بدا لى اننى أقف فى طريقك ، وطريقه ... وطريقى . ان فى داخلى رجلين أحدهما يمنع الآخر من أن يعيش . لهذا رأيت أن يكفا معاً عن الحياة

— أرجو منك يا ألكساى . لماذا تريد أن تعذب نفسك وتعذبنى ؟ الأولى بك أن تفكر فى وسائل النجاة . فلن يتركونا فى أمان طويلا

فتناول نجدانوف يدها وداعبها ثم قال :

— اجلسى بجانبي هنا يا ماريانا ولنتحدث حديث صديقين . فقد آن لنا الآن أن نواجه الحقيقة . وأنت رقيقة وذكية ولاشك انك ستفهمين مقصدى جيداً حتى حين يخوننى التعبير . ولن أعوقك طويلا . فقد فكرت طول الليل فيما سأقوله لك . أتدرين لماذا أفرطت فى الشراب بالأمس ؟ لأنى كنت مهموماً .

لقد اكتشفت فى الأيام الأخيرة انى لا أومن فى أعماق بقضيتنا التى جمعتنا ودفعتنا للفرار معاً . لا أومن بها ! لا أومن بهـا ! ولا أومن بنفسى . فهل تؤمنين أنت بتلك القضية يا ماريانا ؟

فاعتدلت ماريانا فى جلستها ورفعت رأسها وقالت :

— أجل يا ألكساى . أومن بها بكل قوى روحى وسأخصص لها حياتى حتى الرمق الأخير !

— كنت أعلم ان هذا سيكون جوابك . وها أنت ترين انه لم يبق بيننا شىء مشترك يربطنا . لقد مزقت رباطنا بضربة واحدة . أما سولومين . فمع انه لا يؤمن فى أعماقه بالقضية ، إلا أن هذا الايمان غير ضرورى له . انه يسير بدونه قدماً . أما أنا فلا أستطيع . انى خائر ضعيف !

— انك تبالغ يا ألكساى . ألسنا متحابين ؟

— انى أنحنى لنبلك . انك تشفقين علىّ . فأنت تعلمين انه لا حب بيننا !

« ! ان البوليس سيأتى يبحث عنا اليوم . يجب أن نهرب ولا نفترق

— كلا . بل يجب أن يذهب كل منا الى مكان . ولست نذلا حتى أتركك وحدك بغير حام يحميك . ولكنى مطمئن كل الاطمئنان انك ستكونين فى أمان بدونى . انى شخص لا يصلح للحياة وليست لديه الحيوية الكافية للاقبال عليها . انى كالرجل الممعود الذى لا يجد شهية للطعام ، ولا قدرة له على هضمه

وأوشكت أن تسأله ماذا يعنى ، ولكنها احترمت دموعه المنهمرة . ثم دخل سولومين وأعلنهما بالرحيل فوراً بصحبة بافل الى كنيسة الأب سوزيم . وخرجت ماريانا لتجتمع برهة بتتيانا قبل أن ترحل . وأوشك سولومين أن يخرج وراءها فاستوقفه نجدانوف

— ماذا تريد ؟

— أعطنى يدك . انى أريد أن أشكرك على عواطفك وضيافتك . شكراً لك . ثم أريد أن أسألك : ان حدث لى أى شىء ، هل أطمئن الى انك لن تتخلى عن ماريانا ؟ عدنى بذلك

— سوف لا يحدث لك شىء . ولكنى أعدك على كل حال فهى عزيزة علىّ مثلما هى عزيزة عليك تماماً

— كنت أعلم هذا . كنت أعلمه ! وانى مسرور لما سمعت . شكراً لك . والآن سنلتقى بعد ساعة لنرحل معاً . أليس كذلك ؟

— سأكون على أتم استعداد . الى اللقاء أيها الصديق

ثم خرج سولومين . فالتقى بماريانا تصعد السلم . وهم أن يقول لها شيئاً عن نجدانوف وما رآه من غرابة أطواره ، بيد انه أحجم ولم يتكلم . وفطنت ماريانا الى انه كان يريد شيئاً ثم عدل عنه . بيد انها لزمت الصمت كذلك

ولما همت أن تخترق حجرة نجدانوف الى حجرتها تذكرت انها نسيت شيئا كانت تريد أن تخبر به تتيانا فكرت راجعة . فاستوقفها نجدانوف

— ماذا ؟...

— اقتربى منى . أريد أن أراك عن كثب

فاقتربت منه . وكانت عيناه تشعان رقة حين قبل شعرها ، ثم ترك يدها فخرجت ...



مصرع قلب

ما إن خلا نجدانوف الى نفسه حتى راح يذرع الحجرة بضع مرات ثم وقف فى وسطها متصلباً من فرط الحيرة . وفجأة راح يخلع ثيابه التنكرية وقذف بها الى ركن الحجرة ثم ارتدى ثيابه الأصلية واتجه الى للنضدة ذات الثلاثة أرجل وأخرج منها خطابين مختومين وأشياء أخرى دسها فى جيبه . أما الخطابان فتركهما فوق النضدة . ثم نام على بطنه أمام المدفأة وأزاح الرماد المكوم . وكان هذا الرماد هو كل ما تخلف من أوراقه الخاصة وأشعاره التى أحرقها فى الليل . ولم يخف من الحرق إلا صورة ماريانا التى كان ماركيلوف قد أهداها إليه . فتناول تلك الصورة وقبلها ثم وضعها بجوار الخطابين ونهض من مكانه واتجه الى حجرة ماريانا

وهناك وقف برهة ينظر فيما حوله ، ثم اقترب من سريرها الصغير ومال فوقه وهو ينشج نشيجاً مكتوماً فطبع بشفتيه قبلة عند موضع القدمين ثم قفز منتصباً ووضع قبعته فوق رأسه واندفع خارجاً

لم يقابل أحداً على السلم ولا فى الفناء أو الطابق الأسفل الى أن صار فى الحديقة . وكان يوماً رطب الأنفاس تجمع السحاب فى سمائه وأرسل النسيم أمواجاً فى ذوائب العشب وأوراق الشجر . وتلفت نجدانوف فيما حوله حتى استوثق أن المكان خال . ثم قصد تواً إلى شجرة التفاح العتيقة التى استلفتت نظره فى أول يوم جاء فيه الى ذلك المكان . وثبت قدميه الى جانب جذعها . ثم استخرج من جيبه ذلك الشىء الذى كان قد أخذه من درج النضدة. ورفع عينيه الى نوافذ البيت الصغير

— لو رآنى أحد الآن ، ربما لم أستطع ...

ولكن أحداً لم يكن هناك . كان وحيداً تحت رحمة قدر لا يعرف الرحمة

وأجال نجدانوف بصره فى الأغصان المزروقة وفى السماء الملبدة ثم تثاءب ورقد فوق الأرض . وبدأ شيء من الخمود المستحب يستولى على كل جسمه ، فنزع قبعته وألقاهـا بعيداً ، ثم ضغط على زناد المهندس . وسمع صوتا وأحس صدمة عنيفة ... فحاول أن يناديهـا ... ولـكن ثقلا رهيبا سمره فى التراب الى الأبد

وكانت تتيانا فى تلك اللحظة التى جذب فيهـا الزناد قد لمحته راقداً تحت الشجرة . ثم سمعت الصوت فخفت اليه لاهثة الأنفاس وصرخت تنادى زوجها . وفى دقيقة واحدة كانت هناك ماريانا وسولومين وبافل ونفر من العمال فرفعوه على الفور ونقلوه الى البيت وأرقدوه على الأريكة التى قضى فوقها ليلته الأخيرة

كان وجهه أزرق ، وفى حلقه حشرجة . وبين حين وحين يطلق نشيجاً مكتوماً . ولم تكن الحياة قد فارقته . وكان شحوب ماريانا وسولومين قريباً جداً من شحوبه . وكانت ماريانا على الخصوص تشعر انها تحطمت . ولـكنهما لم يشعرا بدهشة كأن ما حدث كان نتيجة طبيعية جداً

ولـكن ترى لمـاذا لا تجسر ماريانا الآن أن تنظر الى سولومين ، وكأنه شريكها فى المسئولية ؟ لماذا يقفان هكذا مصعوقين لا يجسران حتى على التنفس ، فى انتظار ... ماذا ؟ رباه !

وأرسل سولومين يستدعى الطبيب ، وإن كان الأمل معدوماً . وجعلت تتيانا تغسل رأس نجدانوف بالماء البارد والخل . وفجأة توقفت الحشرجة واختلج جفناه . فخرت ماريانا راكعة على ركبتيها بجواره . فثبت فيها نظره وقال :

— أما زلت حياً ؟... يؤسفنى ... أننى ... أعوقكما . لن أطيل على كل حال . ماريانا ... أحيطينى بالأزهار ... هناك وصيتى فى خطابى . هيا . تناولى يده ... أمامى ... الآن ... بسرعة

ولما لم تتحرك ، أسرع سولومين فقبض على يدها . وكان رأسها على حافة الأريكة بالقرب من الجرح . ورأى نجدانوف ماحدث فقال :

— هذا حسن . الآن أذهب مطمئناً ...

وكانت هذه آخر كلماته

▭

ولمـا فضا الخطابين المختومين ، وجدا أحدهما قصيراً جداً ، وموجهاً الى



« وفى دقيقة واحدة كانت هناك ماريانا وسولومين وبافل وحملوه الى البيت »

صديقه سيلين . يخبره فيه أنه فارق هذا العالم

أما الخطاب الثانى فكان موجهاً الى سولومين وماريانا

« أيها العزيزان

« أكتب هذا بعد أن قررت الرحيل عن الدنيا . لأقول لكما انى أسأت اليكما ، ولا سيما ماريانا لما سببته لكما من الحزن والقلق . وأنا واثق ان ماريانا ستحزن جداً وتكتئب نفسها . ولكن ماذا كنت حرياً أن أصنع ؟ لم أستطع أن أجد وسيلة أخرى . ولم يكن فى وسعى أن أعيش عبئاً روحياً على ماريانا مع ما أعرفه فيها من نبل وأريحية حفزاها أن تتحمل المسئولية والتضحية بصدر رحب . ولكنى لست من الخسة بحيث أقبل منها تلك التضحية بحياتها

« فاسمحا لى أيها الصغيران أن أجمعكما على قبرى . فسوف تسعدان بالحياة معاً . وإنى واثق انك ياماريانا ستحبين سولومين جداً . أما هو ... فقد أحبك منذ وقعت عيناه عليك أول مرة عند آل سيبياجين

« ان أمامكما غداً يوم شاق جداً . ولكن ماذا كنت أصنع ؟ لم أجد مناصاً من ذلك . فوداعا يا ماريانا ! وداعا ياسولومين ! واعلم انى أتركها فى رعايتك . فاسعدا معا ، وعيشا للناس . وكلما أسكرتك السعادة يا ماريانا فاذكرينى . اذكرينى لأنى أحببتك وأردت لك السعادة . ولكن لاتحزنى ولا تأسى لموتى . لأنه كان خيراً لى أن أموت من أن أحيا . لقد آثرت سعادتك فيجب أن تؤثرى سعادتى

« هل أحببتك حقيقة ؟

« لا أدرى يا عزيزتى . ولكننى أدرى يقيناً أنى لم أحب أى انسان أكثر مما أحببتك . وأوصيك أن التقيت يوماً بآنسة تدعى ماشورينا أن تبلغيها أنى تذكرتها بكل امتنان فى لحظة نهايتى . وستفهم ماذا أعنى

« كلمة واحدة أخيرة . ربما خطر لك ياماريانا أنى وضعت حداً لحياتى خوفاً من السجن . ولكن صدقينى أن هذا غير صحيح . فليس السجن مخيفاً فى حد ذاته . لكن الذى لا يحتمل حقاً أن يسجن الانسان فى سبيل قضية لا يعقلها

يؤمن بها . والآن أستودعك الله أيتها الطاهرة المحبوبة »

▭

قرأت ماريانا الخطـاب ثم قرأه سولومين . وبعد ذلك وضعت صورتها والخطابين فى جيبها ووقفت صامتة . فقال لها سولومين :

— هيا بنا يا ماريانا نذهب . فمعدات القران كاملة فى الكنيسة.والكاهن فى الانتظار . فلننطلق لنحقق مشيئته الأخيرة

واقتربت ماريانا من نجدانوف ، ثم طبعت شفتيها بحرارة وخشوع على جبينه الذى امتدت إليه برودة الموت . ثم تقدمت من سولومين فواجهته بثبات وقالت له :

— هيا بنا ...

فخرجا ، وقد تشابكت يداهما ...

▭

ولما حضر رجال الشرطة الى المصنع بعد بضع ساعات لم يجدوا غير جثة نجدانوف . وكانت تتيانا قد أعدته لرحلته الأخيرة . وسجته فوق حشية بيضاء وعقدت يديه فوق صدره وحاطت جثمانه بأطنان من أزهارالحديقة. ولكنها لم تضع صليباً على صدره

وروى بافل لرجال الشرطة ظروف الانتحـار . ثم وزع عليهم الخبز السويسرى وكؤوس نبيذ مديرا . ولما سألوه عن سولومين وعن السيدة قال إنه لا يدرى عنهما شيئاً . ثم أكد لهما أن سولومين لا يطيل الغياب عن عمله وأنه لا شك سيعود بعد قليل . وربما فى اليوم التالى على الأكثر

وهكذا انصرف الشرطة بعد أن تركوا حارساً منهم يحرس الجثة إلى أن يحضر المحقق والطبيب الشرعى

وفى هذه اللحظة كان اثنان يركعان أمام كاهن كان قد استعد ليعقد قران العروس على رجل يرقد بلا حياة ...!